شعر البؤس والحرمان ... محمد فضل إسماعيل" نموذجاً "

د. محمد عبده المشد(*)

مقدمة

شعر البؤس والحرمان.. باب طويل طرقه العديد من الشعراء على مرّ العصور، حيث المعاناة التي يعانيها ذلك الصنف المغبون من الموهوبين الذين لا يُقَّدرون في مجتمعاتهم مع علمهم أنهم ينمازون عن بقية مَنْ حولهم.

ولعل صورة الشاعر العربي الطوّاف الحائر، تذكرنا بصورة مماثلة له حفلت بها كتب الأدب في الشرق والغرب، وأطلق الناس على أصحابها "شعراء الحرمان" إذ حرمتهم الحياة أشياء كثيرة من مناعمها وطيباتها، وأحسّوا أنهم يفقدون هذا الكثير، ويتألمون لفقده، فلجأوا إلى مُثلهم وأحلامهم ينظمونها شعرًا فائضًا بالشكوى والألم تارة، وبالسخرية والنقد تارة أخرى، وبالمديح والاستعطاف حينًا، وبالقدح والهجاء حينًا...، أو بالتشبيب بالحبيب المجهول والبكاء على الحبّ الضائع أحيانًا.... وهذه النماذج كثيرة في أدبنا العربي القديم "كالصعاليك مثلاً....".

ثم أولئك الشعراء العذريون الذين ظهروا في العصر الإسلامي في نجد والحجاز، وهم كما ذكر طه حسين ليسوا إلا جماعة من المحرومين الذين أحسوا أنهم يفقدون شيئًا ويألمون لفقده، فاتخذوا المرأة والحب رمزًا لما أحسّوا من لوعة وحسرة.

* – كلية التربية – قسم اللغة العربية – الجامعة العربية المفتوحة.

حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث نجد هذه الفئة في شعرنا العربي على اختلاف أقطاره ومذاهبه، فقد حفل الأدب العربي بذكر أولئك الشعراء، فأورد من قصص حياتهم، ومن أشعارهم التي خلّدُوا فيها آلامهم وحرمانهم، ويظهر ذلك مثلاً في البؤس والشقاء عند نازك الملائكة، وأحزان بدر شاكر السيّاب، وأغاني أبي القاسم الشابي الشجيّة... وآنات فهد العسكر الذي لاقى الهوان والتنكّر من مجتمعه في الكويت، وحمد الحجيّ صاحب "عذاب السنين" في السعودية، وهموم وأشجان خلفان بن مصبح في الإمارات.

أما في مصر فقد حفل الشعر الحديث بدوره بطائفة من شعراء الحرمان، الذين عانوا من شظف العيش كذلك، وكانت لهم أشعار صوّرت آلامهم أصدق تصوير، وعبّرت عن مكنوناتهم الدفينة، كما جمعت المُلح والنوادر التي خلفتها ظروف حرمانهم وآلامهم وبؤسهم.

وعلى رأس هؤلاء الشعراء حافظ إبراهيم، وإمام العبد، وعبد الحميد الديب، وشاعرنا محلّ الدراسة "محمد فضل إسماعيل".

وقد رأيت أن أقصّر دراستي هذه علي محورين فقط، حيث سيأتي المحور الأول متمثلاً في شعر الحرمان عند شاعرين مهمين من شعراء هذا الاتجاه يحملان نسقين مختلفين، وهما معاصران لشاعرنا – محمد فضل– وإن كانا يختلفان عنه في طبيعة البؤس والحرمان إلا أن كلاً منهما جاء نسيج وحده، متفردًا في بابه، وهما حافظ إبراهيم – عبد الحميد الديب، وسيتضح من خلال الدراسة أوجه الشبه والاختلاف بين طبيعة البؤس عند كلّ منهما.

ثم جاء المحور الثاني متناولاً البؤس والحرمان بشكل واضح عند "محمد فضل" حيث ستأتي حياته كسائر قصص الأدباء المكافحين المحرومين... صفحة يشوبها القلق والاضطراب، والتنقل والحيرة، فليجأ إلى ظلال الشعر تنفيسًا عن كربته وبؤسه، وإلى الإيمان بالله تعالى ينشد في رحابه الراحة والعزاء، وحيث يكون الاختلاف في نتيجة هذا البؤس والحرمان عمّن عاصره من شعراء هذا الاتجاه.

توطئة:

تقاس عظمة الشاعر بقدرته على الإبداع والتعبير عمّا في نفسه من مشاعر مختلفة، كما تقاس جماهيريته بمقدار تعبيره عن هموم الآخرين، ومدى تمثل آلامهم وآمالهم في شعره، ووجدانه، وذلك ليستطيع أن يحتل مساحة واسعة من الرقعة الوجدانية لديهم.

فمنذُ وُجِدَ الإنسان وهو يعاني أزمة الحياة، ويدرك ما فيها من خير وشر، وسرور وحزن، وشقاء وحرمان، فشعور الإنسان بالألم والحزن ظل رفيقه في الحياة، وهذه الآلام تكون لأسباب مختلفة حيث فَقْد العزيز مثلاً أو فَقْد أمنية، أو ذهاب نِعْمة، أو تكون لحرمان مما يحب ويريد في الحياة... وهذه الأمور كلها يتفق فيها الشعراء على مرّ الأزمان منذ العصر الجاهلي، وحتى شعراء العصر الحديث، وتبدو أكثر وضوحًا في شعر المذهب الرومانسي كأبي القاسم الشابي، وناجي مثلاً....

والشاعر المبدع في أي عصر مَنْ يحسن التعبير عمّا في نفسه من مشاعر، أو عما يدور بخلجات مَنْ حوله، وهو هنا يحتاج إلى قدر واسع ورصيد ضخم من التجارب العميقة والرفيعة التي تحقق له ذاته الفنية ولا يكون شاعرًا بدونها.

ولو قلَّبنا النظر في شعراء الأمم في كل العصور لما أخطأنا هذه الحقيقة، ولما تجاوزنا هذه الفكرة، بل ولتمثلناها تمثلاً دقيقًا وعميقًا منذ "هوميروس" شاعر الإغريق في ملحمتيه المشهورتين "الإلياذة والأوديسة" وكذلك فرجيل شاعر الرومان في "الإنيادة" ودانتي شاعر "الكوميديا الإلهية"، وكذلك شعراء العرب منذ امرئ القيس وزهير والنابغة وأضرابهم الجاهليين، ومن ورائهم سائر الشعراء الذين لحقوا في الأعصر الأدبية التالية إلى عصرنا الراهن من أمثال المتنبي وأبي العلاء وأبي تمام والبحتري، وكذلك شوقي والبارودي وحافظ وغيرهم ممن ملأوا الساحة الأدبية بالشعر، كما هو مشاهد وملموس ولا يتطلب دليلاً أو برهانًا لتأكيده وتحقيقه[١].

"فالسلوك الإبداعي فيما ينتجه الأدباء محصلته النهائية رسالة أو عمل أدبي "فنيّ" بين المبدع المؤلف وقارئه المتلقي عبر العصور المختلفة، وهما في حالة توحّد تجمع بينهما أوجه الاتفاق والاختلاف في وجهات النظر والآراء والانفعالات"[٢].

وفي ضوء ذلك تعد عملية الإبداع الفني عملية معقدة غير متجانسة، وهي فيما يرى د/ مصطفى سويف "أعقد جوانب السلوك البشري"، وبهذا المعنى قال هيجل "إن العمل الفني يؤلف بين عناصر عقلية، وعناصر حسيّة، ومن ثم فإن الفنان يستعين بعقل إيجابي نشط، وحساسية حيّة عميقة؛ وبدون التأمل الذي يعرف كيف يميّز ويفرق ويتخيّر، يعجز الفنان عن السيطرة على موضوعه الذي يريد أن يضمنه هذا العمل"[٣].

فالشاعر المبدع إذًا بحاجة إلى تعضيد أو اعتراف بدرجة موهبته على وجه الخصوص من نظرائه أو المحيطين به..، ولو تحقق له ذلك التعضيد أو الاعتراف لهدأ عقله وسكن قلقه، وخبت جذوته المضطربة بنيران الحياة ومرارتها، وفي ذلك يقول قائل عن صنوف الحرمان التي اكتوى بعذابها الشعراء وأمثالهم ممن لم يُقدَّروا في حياتهم.

فإذا حُرم شاعر ما متعة من المتع أمكن أن يستعيض عنها بمتعة أخرى تشعره أن الحياة ليست قفرًا في كل مكان، وليست فراغًا في كل وقت... فإذا فُقد ذيوع الصيت مثلاً، أو شيوع الذكر ونباهة الشأن، فإنه يستطيع أن يُشغل عن اللذة النفسية بلذة أخرى حسّية، حيث يستنفد القوى الكامنة بين شعاب الغريزة، وذلك أن تعكس القضية من وضع إلى وضع حين تقوم المعنويات مقام الماديات، لتتم عملية الاستبدال بين طاقة إنسانية تقنع بواقع الحقائق، وبين طاقة أخرى تقنع بما وراء الحقائق من أوهام"[٤].

والشعراء يختلفون في إحساسهم بالكون، كما يختلفون في إحساسهم بأنفسهم وما حولها اختلافًا مبعثه العمق والحدّة في الإدراك والنفوذ إلى بواطنهم وبواطن ما يصورونه من مشاعر مختلفة، فاللذة والفرح أحيانًا يعقبهما الحزن والألم العميق لنفس الشاعر.

وهذا الاختلاف متأصل في طبيعتهم منذ العصر الجاهلي، ويشهد بذلك ما وردنا من شعر سجل حياتهم وما فيها من الألم والشعور والحرمان كما قال امرؤ القيس عن همومه وثقلها مثلاً:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخَىٰ سُدُولَه ... عليّ بأنواعِ الهُمُومِ لِيَبْتلي
فقلتُ له لما تَمطَّى بُصُلْبِهِ ... وأردفَ أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ
أَلاَ أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انْجَلِ ... بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأَمْثَلِ(٥)

أما في العصر الأموي فتظهر في دموع المحبين العذريين في شكل الاستلاب العاطفي، أو الحرمان الوجداني حيث يقول مجنون ليلى مثلاً:

لم تَزَلْ مُقْلتي تفيضُ بدمعٍ ... يُشْبِهُ الغَيْثَ بعدَ أَنْ فَقَدَتْها
مقلةٌ دمعُها حثيثٌ وأخرى ... كُلَّما جفّ دمْعُها أسعدتْها
ما جرتْ هذه على الخدِّ حتَّى ... لحِقَتْ تلكَ باللتي سَبَقْتها(٦)

حتى إذا وصلنا إلى العصر العباسي فإننا نجد المتنبي يصنع الثورة على الحياة ويؤصل لهذه الظاهرة – البؤس والشقاء – حيث أصبحا شائعين في الحياة، يعاني منهما جميع الناس بلا استثناء.. فهذه طبيعة الحياة، وهذه فلسفتها:

صحبَ الناسَ قبْلَنا ذا الزَّمانَا ... وعَنَاهُم مِنْ شَأْنِهِ ما عَنَانَا
وتوَّلوْا بغُصّةٍ كلُّهم منـ ... ـه وإنْ سرّ بعضَهم أحيانا
ربّما تُحْسِنُ الصنيع لياليه ... ولكن تُكَدِّرُ الإحسانا(٧)

وكأن المتنبي هنا قد سنّ قانون الحياة التي هيأها الله تعالى لبني البشر، قائلاً في كتابه العزيز: (لقد خلقنا الإنسان في كبد(٨)).

بيد أنّ ثورة الأفراد أو الشعوب ليست دائمًا نتيجة الشعور بالظلم وحده، فإن شعور النفس الإنسانية بالظلم إنما ينجم من الخلل الذي يصيب المقاييس الطبيعية التي تعارف

عليها النظراء لتكون ميزانًا يتحاكم إليه الأفراد والشعوب فيما قد يُعْرَضُ لهم من شئون وأحوال.

وإحساس النفس بهذا الخلل في المقاييس التي درجت على إلفها ليس كافيًا وحده في دفعها إلى الغضبة وحملها على الثورة، أما إذا انضمّ إلى هذا الإحساس إيمان وطيد بالكرامة الذاتية واستمساك قوي بمبدأ المساواة فهنا تشعر النفس إلى جانب شعورها ذاك أنه قد اعْتُدي عليها اعتداءً صارخًا لا مبرر له، وهنا تشعر أنها قد أصيبت في الصميم من كبريائها إصابة بليغة من غشومٍ ظالم، وحينئذ تنطلق منها الثورة جامحة مدمرة لا رحمة فيها ولا هوادة، وهكذا تخلق الثورة في الأفراد والشعوب.

ولسنا نجد الأمر كذلك في طائفة العبيد والأرقاء مثلاً، فهؤلاء ولا شك يشعرون بالظلم شعورًا قويًا حين يتلوُّون تحت سياط سادتهم، ولأنهم فقدوا معنى الشعور بالشخصية نراهم بدل أن يفزعوا إلى الثورة على جلاديهم يرتمون على أقدامهم ضعفاء أذلاء، ويجنحون إلى الطاعة العمياء، بل ويخلدون إلى الذلة والمسكنة[٩].

وهذا ما دفع المتنبي إلى التعبير عن إحساسه المرّ بالظلم، والهمِّ الذي تكالب على قلبه، لدرجة جعلته يبحثُ عَمَّنْ يزيلُ عنه همّه:

أَمَـــا فـــي هـــذه الـــدنيا كـــريمٌ تـــزولُ بـــهِ عـــن القَلْـــبِ الهمـــومُ[١٠]

ولكن هل كان المتنبي مهمومًا حقًا؟، أم أنه همّ نفسي خوفًا من تبدل الحال التي هو عليها إذا ارتدت حاله إلى سالف عهدها... ولعل همه الخوف من المستقبل المجهول، وإن كان يملك من المال ما يكفيه ويزيد...

ثم ألم يكن البحتري كثير شكوى الدهر، والحياة، وهو يملك الضياع...، وكذا كان أبو العتاهية يقول لسلمّ الخاسر:

تعـــال الله يـــا سَـــلْم ابـــن عمـــرو أذلّ الحـــرص أعنـــاق الرجـــال[١١]

وهو يملك الآلاف الكثيرة من الدنانير قبل زهده.

أما في العصر الحديث فنقرأ في البؤس والشقاء والحزن عند نازك الملائكة، وتطالعنا أحزان بدر شاكر السياب التي تفيض بها دواوينه كما تشجينا أغاني أبي القاسم الشابي، وتحيط بنا الكآبة من كل صوب حين يقول:

مـــاذا جنيْـــتُ مـــن الحيـــاة ومـــن تجاريـــب الـــدّهور
غيـــرَ الندامـــةِ والأســـى واليـــأسِ والـــدمعِ الغزيـــر
هـذا حصـادي، مـن حقـول العـالم الرحـب الخطيـر[١٢]

بل ولن نعدم أن نجد ذلك الاتجاه واضحًا عند كثير من شعراء العرب في العصر الحديث من أمثال فهد العسكر في الكويت[١٣]، وحمد الحجي في السعودية[١٤]، وخلفان بن مصبح في الإمارات... [١٥].

المحور الأول: شعر البؤس والحرمان فى مصر

أما في مصر؛ فإن الشعر الحديث قد حفل بدوره بطائفة من شعراء الحرمان والبؤس، الذين عانوا من شظف العيش كذلك، وكانت لهم أشعارهم التي صورت لنا آلامهم وآمالهم أصدق تصوير، كما كانت تجمع في كثير من الأحايين المُلح والنوادر التي تخلقها ظروف حرمانهم وآلامهم.

وعلى رأس هؤلاء الشعراء يأتينا حافظ إبراهيم، وعبد الحميد الديب، وشاعرنا – محل الدراسة – محمد فضل إسماعيل.

بيد أن حافظ إبراهيم قد أكثر من شعر البؤس والحرمان، وقسوة الزمان وسوء الطالع... وخاصة بعد إحالته إلى المعاش وهو ضابط وبعد عودته من السودان قبل أن يعمل في مصر:

ســعيتُ إلــى أنْ كـدتُ أنتعـل الـدّما ... وعــدتُ ومــا أعقبــتُ إلا التَّنَــدُّما
لَحَــى اللهُ عهـدَ القاسـطين الـذي بـه ... تهــدّم مــن بنياننــا مــا تهــدّما
إذا شِـئْتَ أن تَلْقــى السـعادةَ بيـنهم ... فــلا تــكُ مصــريًا ولا تــك مُسـلما
ســلامٌ علــى الــدُّنيا ســلامَ مــودّعٍ ... رأى فــي ظـلام القبـرِ أُنسًـا وَمَغْنَمَـا
أضَــرَّتْ بــه الأُولــى فهــامَ بأختهــا ... وإن ســاءَتْ الأخــرى فــويلاهُ منْهُمــا

فهُبّـي ريـاحَ المـوتِ نَكْبًـا وأطفئـي سـراجَ حيـاتي قبـل أن يَتَحَطَّمـا
فمـا عصـمتني مـن زمـاني فضـائلي ولكـنْ رأيـتُ المـوت للحُـرّ أَعْصَـما
فيـا قلـبُ لا تجـزعْ إذا عضَّـك الأسـى فإنَّـكَ بعـدَ اليـومِ لـنْ تتألَّمَـا
ويـا عـينُ قـد آن الجمـودُ لمـدمعي فـلا سَـيْلَ دمـعٍ تَسْـكُبين ولا دَمَـا[١٦]

ويتضح من الأبيات مدى اجتهاد الشاعر في السعي بعد عودته إلى مصر، تلك العودة التي أعقبها الندم والحسرة والبؤس لما أصابه، بيد أن الأيام والغاصبين قد اصطلحوا على إحباط سعيه، فأسلموه إلى تلك الحالة من الحزن واليأس التي تمنى معها حياة القبر ولقاء الموت.

والأبيات على ما يخالطها من تهالك العزيمة والعزوف عن النضال إلا أنها صولات قلائل من الزمن والقاسطين حتى يُلقي حافظ سلاحه، ويسقط في المعركة، ومن ثم تضامَّت جوانب القصيدة وانطوت على نفسها، حيث بادر الشاعر إلى إسدال الستار على الموقف المثير كله بما قاله في البيت السادس:

فهُبّـي ريـاح المـوت نكبًـا وأطفئـي سـراج حيـاتي قبـل أن يتحطمـا

وكذلك بقوله في البيت الثامن:

فيـا قلـبُ لا تجـزعْ إذا عضَّـك الأسـى فإنَّـكَ بعـدَ اليـومِ لـنْ تتألَّمَـا

"على أن هذا التخاذل بين الشطرين "الأول – الثاني" يفقد هذا البيت قيمته، فإذا لم تجزع القلوب من عضّ الأسى فمن أي شيء تجزع إذن؟ فالموت يضع نهاية للأسى، وتوقع الموت لا يُذهب الجزع منها إذا نزلت به النوائب"[١٧].

بيد أن حافظًا كان كثيرًا ما يشكو الدّهر ويندب سوء حظه، ويتبرمُ بأحداث الزمن ويتمنى لو يوافيه حِمامه، حيث يقول في ذلك:

عَجِبـتُ لِعُمـري كيـف مُـدّ فطـالا ومـا أثّـرت فـيّ الهمـومُ زوالا
وللمـوتِ مـالي قـد أراه مباعـدًا وجُـلّ مـرادي أن أوسَّـدَ حـالا
فلَلْمـوت خيـرٌ مـن حيـاةٍ أُرى بهـا ذلـيلاً وكنـتُ السَّـيدَ المفضـالا

ولعل منشأ ذلك الحزن والشقاء عنده، تلك النشأة التي نشأها في بيت خاله "حتى إنه لَيُذَكِّرُه دائمًا بيُتْمِه وعُدمه، وتصور له دائمًا بؤسه، وشقاءه"..

وهذا يفسر لنا ما كان من نفس حافظ من حزن عميق، وألم كامن، على الرغم مما يلوح على سطحها من ضحك وسرور، وتلك طبيعة الكثير من البؤساء وخاصة ممن يتصفون بعزة النفس والإباء...

بيد أن حافظًا قد غالى في ادّعائه البؤس والحرمان، واستمرأ هذا الادّعاء، وخاصة عندما غالى الناس في نسبته إليه أيضًا، وذلك لما كانوا يسمعونه من شعر ونثر في هذا الاتجاه آنذاك.

فهل كان حافظ بائسًا حقًا كهؤلاء المتجولين الذين لا يجدون قوت يومهم، أو الذين يتجولون بين شوارع القاهرة وأزِقّتِها ومقاهيها في أسمالهم آنذاك يطلبون لقمة العيش، وما يقيمون به أودهم حيث يعز عليهم إيجاد لقيمة عيشهم بسهولة.

ويجيبنا عن ذلك أحد الباحثين قائلا:

"كل أصدقاء حافظ يُكَذِّبُون دعواه... فهذا الأستاذ المازني يراه يُخرج من جيبه حافظة نقوده في مقهى "متاتيا" ويرميها إلى "إمام العبد" ليأخذ منها ما يشاء، وكانت وقتذاك مليئة بـ... وقال إبراهيم الدبّاغ إن حافظًا لم يترك تدخين السيجار قط في كل مراحل حياته..[١٨].

ثم يؤكد رأيه قائلاً: "ربما يكون قد لقِي شيئًا من العنت في حياته الأولى سنة ١٩٠٠م يوم نزل القاهرة مطرودًا من السودان، فقد كانت شكواه تتضح في هذه السنة، ثم نراها انقطعت بعد ذلك"[١٩].

وقد يكون حافظ كشارلي شابلن: الذي أرهقه الفقر في طفولته، فلم يبرح خياله قط، فقد اتخذ منه فلسفة تضمنتها كل أفلامه، فهو يخاف الفقر رغم الملايين التي يملكها حتى أنه افتتح مطعمًا لأحد أصدقائه بماله ليكون له موئلا، يلجأ إليه إذا عاوده الفقر مرة أخرى[٢٠].

إنَّ يُتْمَ حافظ، وفقر أمه، وقسوة خاله: كل هذه الأشياء استقرت في عقله الباطن وراحت تعاوده، كلما لمس خيبة أمل في حياته، ولو كانت خيبة تافهة.

وكان – رحمه الله – يجسم الأمور ويعظمها ويغالي فيها، فقد ادّعى البؤس وهو ليس ببائس، وسطر في كتاب البؤساء هذا البؤس فقال:

"ألفه مؤلفه وهو بائس، وعربّه مُعربه وهو بائس، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها في المرآة، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو في منفاه، وعرّبه كاتب هذه السطور وهو في بلواه.. فلولا أنني أشرب بالكأس التي كان يشرب منها ذلك الرجل العظيم، لما وصل مبلغ علمي إلى مبلغ علمه... ولولا اتحادنا في الألم وتشابهنا في الشقاء.. ما حدثتني نفسي بتعريب ذلك الكتاب"[٢١]. فهل كان "فيكتور هوجو" بائسًا بؤس حافظ الذي يدّعيه، كان هوجو منفيًا في البلجيك وكان حافظ حرًا بالقاهرة يلهو ويشرب ويدخن السيجار، ولكنه تصيّد المعنى وضم نفسه للرجل ظلمًا".

أنا لا أعدُّ بؤسه إلا بؤسًا في الرغبة والطموح، كان فيه خُلق الأدباء المتطلعين إلى الترف والحياة الناعمة التي يزعمون أنها من حقوقهم وحدهم، لأنهم فقهوا جمال الحياة ونعيمها، وأنهم فوق الناس فهمًا وإدراكًا، فهم أحق منهم بكل خير في هذه الدنيا... [٢٢].

ثم يأتي عبد الحميد الديب الذي لا يستطيع أحد مَنْ كان أن ينكر شعره الذي يطفح ألمًا، وينطق بؤسًا وحرمانًا من هول ما لاقى في حياته، لدرجة أن التصق به لقب شاعر البؤس والحرمان، وقد اعترف الشاعر نفسه في مقال نثري له كتبه، وأُلحق بديوانه الذي حققه وراجعه محمد رضوان، وقدّم له الشاعر فاروق شوشه، حيث يقول الديب عن نفسه:

"لقب شاعر البؤس: أجمع المتحدثون عن الشعر والشعراء على أن يمنحوني لقب شاعر البؤس، وأن يتوجعوا لآهاتي وزفراتي في شكواي الزمن وتبرمي بالناس، وأؤكد لهؤلاء جميعًا أن البؤس هو الصلة الروحية بين الأرض والسماء، هو الصلة بين قلب الشاعر وربه وكفى![٢٣].

وليس من شك في أن البائس في الدنيا هو مرشد الوسط الذي يعيش فيه وهاديه، وأخيرًا هو الضحية والقربان للأحقاد والمفتريات التي تحيط به، بغض النظر عمّا يعانيه من الناس، ومن الدّهر معًا، يقول مخاطبًا أهله:

يـا معشَـر الـدِّيب وافـى كـلُّ مغتـربٍ إلا غــريبَكُمُ فــي مصــرَ مــا بانــا
قـــدّمتُم الشـــاةَ قربانًـــا لعيـــدِكمُ والــدّهرُ قــدّمني للبــؤس قُرْبانــا(٢٤)

وقد كان الشاعر يعتقد أنه هدف لظلم الحياة والناس، وليس أقسى عليه أن يقدّمه دهره قربانًا للبؤس، فهذا الشعور بقسوة دهره، وظلم الناس له كان قويًا، وكاد يعصف بكيانه ويزلزل وجوده؛ فإذا انضم إلى ذلك إيمانه بعبقريته ويقينه بأنه فنان من حقه على المجتمع أن يقدره قدره، وأن يهيئ له حياة تليق بمقام فنه وعبقريته، وهو حين يأكل الحرمان، ويحيا بالأمل الكذاب. يحس في عنف أن كرامته قد أهدرت، وأن الناس قد ظلموه، وتجنوا عليه، ولهذا نجد أن دوافع الثورة تتجمع في وجدانه، لتَهْدُر هواتفها في جنبات صدره المحنق ثم لتنطلق قوية صاخبة في شعره، وقد اصطبغت ملامحها بالدم، وتصايح في ساحتها الويل والثبور"(٢٥).

وأي صورة أقسى من هذه الصورة المؤلمة والمفزعة في آن، تلك التي يرسمها لبيته البائس الذي يشبه اللّحد، ويصور مدى الهوان والحرمان الذي يلاقيه في حياته:

أفـي غرفتـي يـارب أم أنـا فـي لحـدي؟ ألا شـدّ مـا ألقـى مـن الـزمن الوغـدِ
وهــل أنــا حــيٌّ أم قضـيتُ؟ وهــذه إهابـــة إســـرافيل تبعثنـــي وحـــدي
لقــد كنــتُ أرجــو غُرفــةً فأصــبْتُها بنــاءٌ قـديم العهـد أَضْـيق مـن جَـدْثي
فأهـــدأُ أنفاســـي يكـــادُ يُهـــدّها وأيســرُ لمــسٍ فــي بنيانِهــا يُــردي
أرى النَّملَ يخشى النـاسَ إلا بأرضـها فأَرْجُلـه أَمْضـى مـن الصَّـارِمِ الهِنْـدي
تُســاكِنُني فيهــا الأفــاعي جريئــةً وفـي جوّهـا الأمـراضُ تفتـكُ أو تُعـدِي
ترانـــي بهـــا كـــلَّ الأَثَـــاث فمعطفـــي فــراشٌ لنــومي أو وِقــاءٌ مــن البــردِ
وأمَّـــا وســـاداتي بهـــا فجرائـــدٌ تُجَــدَّدُ إذ تَبْلــى علــى جحــرٍ صَــلْدٍ
تعلمـتُ فيهـا صبرَ أيـوبَ فـي الضـنى وذقتُ هُزال الجوعِ أكثر من "غانـدي"

من يتأمل هذه الأبيات يرى فيها صورة البؤس والحرمان والهوان... "ولكن ذلك كله يكاد يتوارى أمام تماسك البناء الشعري الذي يعبر عن موهبة تناطح الفحول وتتحاور مع عوالمهم

عبر العصور الأدبية العربية المتعاقبة... حيث البؤس والحرمان الذي يصل إلى مداه... وهذا التعبير بالصور الدراماتيكية الكاركاتورية؛ فهي تدفع البسمة إلى شفاهنا مرة وتدفع الدموع إلى العيون مرات... [٢٦].

نحن إذاً أمام شاعر نافر من بيئته، ومغاير لما يأتي به من صور البؤس والحرمان لإحساسه بمدى الظلم الواقع عليه..

ويعلل فاروق شوشه لهذا التنافر وتلك المغايرة في شعر الديب بالتحول الشعري الكبير بين الكلاسيكية المترنحة والرومانسية الثائرة التي ظهرت في بداية القرن الماضي حيث يقول:

"في معترك التحوّل الشعري الكبير، بين كلاسيكية تترنح وتتهاوى، ورومانسية ثائرة جامحة متمردة، بين شعر شُغل طويلاً بخارج الإنسان، شواغل واهتمامات وعرض حياة وشعر يصطبغ بالوجدان، ويأخذ عنه شهاداته على إبداع جديد وليد، في أتون هذا التحول العنيف ولدت شاعرية الديب وترًا نافرًا في قيثارة الشعر، وصوتًا مغايرًا للمعهود والمألوف من معجم الشعراء، وعريًا كاملاً – حتى إحداث الصدمة – أحيانًا من مواضعات العصر وطبقية تصنيف الشعراء، وسيطرة المفهوم المتوفرة للمعجم الشعري"[٢٧].

ولم يمتلك – الديب – من مقومات هذا الموقف – النافر والمغاير غير بضاعة شعرية يمكن أن تصنف داخل إطار السياق العام، من حيث التأهيل، والانتماء الحميم للموروث الشعري – شأن شعراء جيله – لكنها وهي الدالة على نموذجه الكلاسيكي، أتيح لها من جوهر روحه وتمرّده، تلك النار المقدسة التي يقدر لها أن تتوهج وأن تشتعل بها عبقرية شعرية مغايرة، شغلت بتقييم ذاتها، وذوات الآخرين، وحظها المتدني وحظوط الآخرين، فكان وعيها العميق بالتفوق، بالرغم من دونية الوضع الاجتماعي والإمكان المادي، مطلقًا لها المارد الشعري الذي يجرف كل من يعرفه ويلتصق به[٢٨].

وقد ردّ شوشه تلك الروح المتكبرة العاتية التي يمتلئ بها شعر الديب إلى تأثره بروح الصعالكة، باعتبارها تمردًا على الواقع وتقاليده، بل وإلى شدّة اعتداده بنفسه، حيث يقول في ذلك:

ومن هنا هذه الروح المتكبرة العاتية التي يمتلئ بها شعره. ويتوهج لأنه يرى نفسه دائمًا أعظم ممن يقصدهم، ويرى شعره أرفع مما يكتبه شعراء التقاليد المستأنسة والمسيطرة التي تحقق المنفعة، والقيم التي تؤازر المصالحة ولا تعمق شُقة الخلاف أو الصدام أو الخروج على المألوف[٢٩]:

يـــا أمـــة جهلتنـــي وهـــي عالمـــةٌ ... أن الكواكـــبَ مـــن نـــوري وإشْـــرَاقي
أعـــيشُ فـــيكُمْ بـــلا أهـــلٍ ولا وطـــنٍ ... كعَـــيْشِ مُنْتجـــعِ المعـــروفِ أفّـــاقِ
ولـيسَ لـيْ مـن حبيـبٍ فـي ربوعكمـو ... إلا الحبيبـــين أقلامـــي وأوراقـــي
رِيْشَـتْ لِحَظِّـي سـهامٌ مـن نميمـتكم ... فصـــارعتني ومـــالي دونهـــا واقِ
لـم أَدْرِ مـاذا طعمـتُم فـي موائـدكم ... لحـــمَ الذبيحـــةِ أمْ لحمـــي وأَخْلاقـــي

هذا الأفق الشعري والإنساني الذي حرص عبد الحميد الديب على أن يتوجه إليه، ويرتفع بتمرده وعناده وإصراره، وأحيانًا بهجائه المقذع، وما يلبث الشاعر أن ينفجر جُرْحه ألمًا نازفًا من خلال تلك التجربة الواقعية التي تذكرنا بكبار المبدعين الذين تنكر لهم الزمان والأهل.. والناس، ولم يظفروا من الدنيا بما يستحقون من مكانة بين ذويهم أمثال ابن الرومي، ومهيار الديلمي، والمعري قديمًا، والمازني، وحافظ، والشابي حديثًا حيث يقول:

ضـاقَتْ بـه الـدُّنيا فكُـنْ رحْبًـا بـه ... قـد ذلّ مِـنْ غَـدْرِ الزمـان وريبـه
لا تنكـروا الشـكوى علـى متبـرّمٍ ... قلـقِ الحيـاةِ كمـن يُشَـاك بثوبـه[٣٠]

ثم يصرخ في موضع آخر صرخة مدوّية، متعجبًا ممن يعلمون حاله، وينصرفون عنه، ويتنكرون له في جمود عجيب:

مـا بـالهم سـكتوا كـأن لـم يعرفـوا ... هـذا الضـحى والشـمس فليتشـوفوا
ضَـنُّوا علـيّ بكثـرهم وبقلّهـم ... وسـواي لـو طلـب المعونـة أَسْـرَفُوا
لا تبهمـوا يـا جيرتـي أحكـامكم ... فـي محنتـي، فلتعـدلوا أو تجحفـوا
لا تسـمعوني نـوحكم لشـقاوتي ... وترنمـوا بـين الحـوادث واعزفـوا

ثم يتعجب ثانية في مرارة وحسرة من هذا التجاهل الممض، وهذا الإهمال الذي يدل على تنكر شديد:

ما بالَ مَنْ عرفوا أليم خصاصتي ورقيق حالي ليس فيهم مُسْعفُ؟
مَنْ كان يقدر أن يُفرّج كُربتي وينيب مدمعه فظُلْمٌ منصفُ
يتمتعون بمدمعي وشكايتي والبدرُ سلوى للورى إذ يُخسفُ

إلى أن يقول مُعرّيًا هؤلاء القوم، الذين انصرفوا عنه، وقد كانوا له بالأمس أصدقاء وتحولوا إلى ذئاب بعد تغيّر الحال:

أأرى ذئابًا؟ أم صحابًا؟ إنهم وجميعهم في الخَطبْ لم يتعطفوا
"بار اللواء" جمعت بعض كتائب والحقدُ فيهم مستبدٌ متلفُ

ثم يربط بين غدرهم به، وغدر الزمان معه، فكلاهما لا يرعوي من تسديد الطعنات والسهام له، ويختم القصيدة بها التساؤل الحائر، الذي يدل على دهشته وتعجبه بما يحدث له:

وقفوا كما وقف الزمان بمحنتي لدمي البرئ جميعهم يستنزفُ
أأعيشُ بينهم شقيًا مُعدمًا وهمُ غنيٌ ناعمٌ وموظفٌ؟[٣١]

بيد أن هناك رأيًا قد يتفق معه الباحث، وهو رأي الأستاذ/ أحمد حسن الزيات[٣٢]، حيث جعل منه "نمطًا وحده في شعراء العصر، وكان ظهوره رجعةً إلى نوع انقرض من الشعراء الهجَّائِين المستهترين المُكدين الذين لم تهيئهم طبائُعهم للعمل الكاسب فأخلدوا إلى التَّبَطُّل، وحملوا عجزهم وعوزهم على لؤم الناس، وظلم القدر، من أمثال أبي الشمقمق الذي يقول:

إن العيالَ تَرَكْتُهم بالمصرِ خبزُهُم الغُضَارة
وشرابُهم بولُ الحمارِ مزاجُه بولُ الحِمارَة[٣٣]

ويقول في موضع آخر:

ولقــــــد أهزلـــــتُ حتـــــى محــــت الشـــمس خيـــالي
لـــو أرى فـــي النـــاس حُـــرًا لــــم أكــــن فـــي ذا المثـــال

إلى أن يقول:

ولقــــــد أفلســــتُ حتـــــى حـــــلّ أكلـــــي لعيـــــالي
مـــــن رأى شـــــيئًا محــــالاً فأنـــــا عــــين المُحـــــال[٣٤]

ولما بلغ الفقر مبلغه عند أبي الشمقمق، ولازمه فترة طويلة من الزمن شعر باليأس فعبّر عن ذلك قائلاً:

أتراني أرى مــن الــدهر يومًــا لـــي فيـــه مطيـــة غيـــر رحلـــي[٣٥]

فهؤلاء المفاليك المجّان الذين جعلوا الشعر وسيلة إلى العيش بالهجاء الفاحش، والمدح المكذوب، والشكوى المستمرة كانوا طبيعيين في المجتمع العربي القديم الذي كان يفهم الشعر على هذا النحو.

ثم جاء شعر الديب شذوذًا في نسق مضطرد، ونشوذًا في نغم مؤتلف، ولكنه كان ككل شاذ وكل غريب متجه الأنظار.... ذلك أنه كان يجري على أسلوب الحطيئة وابن الرومي في قوة الهجاء، وعلى أسلوب ابن حجاج وابن سكرة في فحش العقول والمجون، وكان يختلف عن هؤلاء جميعًا بألوان من الصور والتشابيه انتزعها من بيئته، ونقلها عن واقعه...[٣٦].

قست الطبيعة على الديب فلم تزوّده بما تزوّد به الحيّ الكامل العامل بالكفاية الكافية لابتغاء العيش السائغ الهنيئ، فكان رغبة جامحة لا تحققها قدرة، وشهوة عارمة لا تضبطها إرادة، ورأى نعم الله تفيض من حوله على مَنْ يراهم مثله أو دونه، وليس له منها موردٌ، ولا فضل، فأطال لسانه الحقد، ورفع عقيرته الجوع وألهب شعوره الألم، وأمضّ نفسه الحرمان، فصدر عنه شعره كما يصدر الأنين عن المجروح، والصراخ عن المظلوم، والزمجرة عن الساخط، ولم يفهم الشعر على أنه فن يلذ، أو رسالة تؤدّى، وإنما فهمه على أنه سلاح يحمي، أو شصٌّ بصيد، وكان منشأ ذلك الفهم القديم للشعر الحديث أنه كان كأكثر الشعراء

القدماء لم يعرف الحياة على أنها جد وكدّ، وإنما عرفها على أنها لهوٌ وصعلكة، ولذلك قضى حياته البوهيمية البهيمية شهوان لا ينام إلا على المُسكر والمخدّر، ولا يستيقظ إلا على الجوع والظمأ[٣٧].

والباحث وإن اتفق مع الأستاذ الزيات في كون الشاعر "الديب" قد انفصل عن مجتمعه، وعاش حياة بوهيمية إلا أنه يخالفه القول في نسبة الفحش والهجاء المقذع، والشذوذ إلى الشاعر، وإلا فما بالنا بالشاعر المبدع الذي لا يُقَدَّرُ في مجتمعه.. ثم ألا يذكرنا ذلك بما حدث مع الصعاليك منذ العصر الجاهلي، وما يحدث مع شعراء هذا الاتجاه حتى الآن.. وهذا ما يؤكده بعض الباحثين قائلاً:

إذا كان الظرفاء المطبوعون، والصعاليك النبلاء في نظر البعض مستهترين وفوضويين ومارقين عن التقاليد المرعيّة، أو بوهيميين يرفضون النظام والانضباط، لكونهم يسهرون الليل وينامون النهار، أو يلقون بأنفسهم ومصائرهم في التهلكة، ولا يدّخرون من شبابهم ما ينفعهم في مشيبهم، فلابد وأنهم أقرب إلى الجنون أو الشذوذ، وأبعد من التحوّط والفطنة، وقد يكون هذا الرأي برغم سذاجته صحيحًا بشكل أو بآخر؛ لكن هل في عالمنا وعوالم غيرنا من المبدعين في سلوكهم وأطوار حياتهم مَنْ ألزم نفسه بالنظام والانضباط؟[٣٨] ثم يجيب الباحث قائلا:

لا أظن.. ولعل تاريخ الأدب العربي في الماضي أو الحاضر شاهد على هذه الظاهرة التي ظلت تعلن عن نفسها منذ العصر الجاهلي، فكان ظهور جماعة الصعاليك وبينهم عروة بن الورد والطرماح وذو الرمة وتأبط شرًا... وهؤلاء كانوا متميزين في مجتمعاتهم بالذكاء والثقافة وخفة الظل، وإلى ذلك كانوا أيضًا من الساخطين على المظالم الاجتماعية، ومن ثم راح بعضهم يسلب الأغنياء أموالهم، ويمنحها للفقراء، وغيرهم كان يحتج على الرتابة وقيود التقاليد بالفوضى والخروج على المألوف، وهم في كل الأطوار يفصحون عن آرائهم ومكنونات مشاعرهم عَبْر نظم الشعر الجميل الذي خلّدهم أبد الدّهر.

المحور الثاني: البؤس والحرمان في شعر "محمد فضل إسماعيل"[٣٩].

يُعَدُّ الشاعر "محمد فضل إسماعيل" من شعراء الجيل الماضي، حيث ظهر منذ أوائل العشرينيات، ثم قام بحمل الأمانة، بعد أن خلا الميدان – ميدان الشعر – من أمرائه وفرسانه، في أوائل ثلاثينيات القرن الماضي، وما تلاها حتى عام ١٩٦٩م.

وقد عاش شاعرنا واحدًا وسبعين عامًا "١٨٨٩ – ١٩٦٩م" جاهد خلالها جهادًا مريرًا في سبيل الحصول على لقمة العيش، ولكنه مع ذلك لم ينكص عن أداء رسالته بالشعر نحو وطنه، الذي حمل القلم، كما يقول، في سبيل الذود عنه، والدفاع عن حرياته[٤٠] برغم ما ناله من شظف العيش وقسوة الأيام؛ حيث لم يفارقه الأسى والبؤس والحرمان إلى أن ودّع الدنيا في ظروف صعبة وكأنْ لم يسمر بمكة سامر.

وبالرغم من هذه الموهبة التي يمتلكها الشاعر إلا أنه لم ينل حظه، وكان على ما ناله من منزلة وشاعرية مغمورًا.

"فقد عاش عيشة أقرب إلى الإهمال منها إلى ذيوع الاسم والشهرة، وكان يكدح ويضني نفسه، ويبذل جهده، في سبيل النهوض برسالته كشاعر، على الرغم من المحن الداوية التي اكتنفت حياته"[٤١].

على أن عاطفة الحرمان كانت غالبة على روح الشاعر وهي التي دفعته إلى الإكثار من شعر المناسبات لعله يظفر بتحقيق مآربه الخاصة في الحياة، كما أن حرمانه وألمه قد انعكس على أغراضه الأخرى، وهو ما سيتضح بعد ذلك.

وديوان الشاعر متعدد الأغراض وإن طغى عليه الاتجاه السياسي والقومي برغم شدّة الحرمان والبؤس، وهذا ما جعل أحد الكتّاب يتعجب من نحول جسمه، واستكانته ووداعته... وكيف له أن يطلق هذه القذائف المدوية في الساحات القومية، وأن يرسل هذه الطرائف الساخرة في ساعات اللوعة، والتألم ومواقف الشكوى والتظلم"[٤٢].

ويزيد الكاتب من تعجبه قائلاً: ولعلك وأنت جالس إليه، والنظرة الحائرة والبسمة الغامضة تطوفان بوجهه النحاسي النحيل، شبهته بالبركان الهامد يخفي في جوفه الحمم، ذلك

الوجدان المستور يطوي الاحتجاج على مافيه دنياه من مظالم وعدوان، والتمرد على ما في نفسه من حسرة وحرمان[٤٣].

وقد لقبته الشاعرة "جليلة رضا" بشاعر وادي النيل، حيث ينتمي إلى السودان ومصر، فهو سوداني الأصل، بيد أنه وُلد وعاش في مصر بين مدينتي السويس، والأسكندرية.

ثم تتناول في وقفتها مع ديوانه رسالة الشاعر بشكل عام، وكيف أن الشاعر الأصيل هو الذي يمنح قارئه من القوة ما يدفعه إلى مصارعة أحداث الزمن ومن النور ما يجلو به دياجير مكانه ومن المشاعر النقية العارمة ما يغسل به صدأ وجدانه...[٤٤].

فالشاعر الصادق يمتلك الدنيا بأسرها، يصنع بها ومنها ما يشاء، حتى إذا جاءها يحقق حلمه المنتظر وجدها وهمًا وسرابًا:

أنا كمْ غرسْتُ النورَ والآمالَ في قلبِ الشَّجَرْ
وأقمتُ أفراحَ النّجومِ لكي يبارِكُها القَمَرْ
وخطبتُ أسرابَ الرياحِ العاشقاتِ إلى المَطَرْ
وعقدتُ للدُّنيا مراسيمَ الزواجِ مِنَ القَدَرْ
أنا كَمْ زَفَفْتُ الكلمةَ النشوى إلى حُضْنِ الوَتَرْ
وفشلتُ حين أردتُ أن أحظى بحلمي المنتظر[٤٥]

إذن فرسالة الشاعر مقدسة نبيلة، أن يظمأ ليروي، ويملك ليعطي، ويرسل من خلال نافذته الواسعة المطلة على جنباته نسمات روحه الرطيبة حينًا، الدفيئة أحيانًا، يرسلها إلى اللاهثين والمقرورين في كل صيف وشتاء.

وهكذا فعل شاعرنا الراحل، فقد كان شاعرًا في كل أغراضه، وكان يؤمن برسالته أشدّ ما يكون الإيمان، آمن بأن الشعر رسالة لابد أن تؤدَّى على الوجه الأكمل، ولذا جاء شعره ترجمة لذاته ترجمة واقعية حتى في تمرده، وعصيانه، وبؤسه ترى حياته من خلالها صادقة واضحة من خلال قصائده المشحونة بالانفعال الصادق الذي يعبر من خلاله عمّا في نفسه،

فتراه يقول في قصيدته "أبا الزهراء" مثلاً حيث يخاطب النبي "ص" ويبثه شكواه من الحزن واليأس الذي عمّ الناس جميعًا:

أبـــا الزهـــراءِ إنّ الأرضَ شـــاهتْ ... وصـــارَ الـــرأسُ فيهـــا للجبـــانِ
ودبَّ اليـــأسُ فـــي كـــلِّ النـــواحي ... وخـــيّم فوقهـــا نَسْـــجُ الهَـــوَانِ
ففـــي الأكـــواخِ عـــدوانٌ وبغـــيٌ ... ومـــا سَـــلِمَتْ مـــن الجَشَـــعِ المَغَـــانِي
وأصـــبحَ كـــلُّ ذي حـــق غريبًـــا ... عـــن الـــدنيا يُعـــاني مـــا يُعـــاني[٤٦]

وأما أكثر قصائده في المناسبات فمرجعها إلى الفقر والبؤس اللذيْن لاقاهما في حياته، علّه يجد معينًا يتقرب إليه من أصحاب السطوة في ذلك العصر، فنراه يقول في قصيدة مهداة إلى مدير الشئون الاجتماعية بالسويس مثلاً:

فمـــن حقّـــي إذا مـــا العيـــدُ وافـــى ... مُثُـــولي عنـــد بابِـــكَ أو وُقُـــوْفي
لأُنْشِـــدَ فـــي ودَادِكَ مـــا يغنـــي ... بـــه طيـــر الغصـــون علـــى الحفيـــف
فقـــد أكرمتنـــي وأَسَـــوْتَ جُرحـــي ... فلـــم أحفـــل بقعقعـــة الســـيوف
ومـــا باليـــتُ مـــن دهـــري عنـــادًا ... ولا طأطـــأت رأســـي للحتـــوف

وكل ذلك لأنك:

نصـــرتَ كرامتـــي وجَعَلْـــتَ منـــي ... عـــريضَ الجـــاه مـــن شُـــمّ الأنـــوف
ونفـــسُ المـــرءِ أقتَـــلُ مـــا أناخـــتْ ... بـــه الـــدُّنيا علـــى الرَّجُـــلِ العيـــوف
عرفـــتَ الـــدَّاءَ لـــم تَتْركـــه حتـــى ... يحطِّـــمَ دوحـــةَ الأدب المنيـــف
أَقَلْـــتَ عِثَـــارَه وفتحـــتَ بابًـــا ... ليَنْفُـــذَ منـــه للظـــلّ الوريـــف

ومع كل ما كان يشعر به من فقر، وفاقة إلا أننا لا نعدم صدق إحساسه ومشاعره وحبه الجارف لوطنه حيث يقول:

ســـأحيا لا لنفســـي بـــل لقـــومي ... لأرفـــع رايـــة الأدب الطريـــف
وأعمـــل جاهـــدًا فـــي كـــل وادٍ ... جهـــاد الحـــق فـــي مُـــدنٍ وريـــف[٤٧]

ومن مظاهر فاقته وفقره أيضًا، أنه كان يعيش على إعانة شهرية تصرفها له نقابة المعلمين في الأسكندرية، قدرها أربعة جنيهات وقد عبر عن ذلك بصورة ساخرة في قصيدة طويلة بعنوان "أمثلي يعيش على أربع" وكأن العنوان يحمل من السخرية ما يحمل؛ حيث يُحمل على معان مختلفة لا تخلو من طرافة يقول فيها:

فإسكندرية لم تنسني   وفيها تنقلتُ كالطائرِ
وفيها تلاقيتُ "بالجوهري"[٤٨]   وبالرَّجُل الأمْثَل الطَّاهرِ
فيغمرني بالثناء الجميـ   ـل وبالفضل والأدب الزاخر
ولم أدر كيف هنا في السـ   ـويس قد صرت كالشبح الساهر
أقوم وأقعد في فاقة   بغير معين ولا نَاصرِ
ولم أَجْنِ ذنبًا سوى أنني   مثال المُرابط والصابرِ
أرى الموتَ أفضلَ من قولتي   لأي امرئ "ضاق بي خاطري"

إلى أن يصل إلى السخرية والتهكم مما يحدث معه متعجبًا من هذا المبلغ القليل جدًا من المال آنذاك والذي لا يكفي أن يكون حتى علفًا للحيوان... فكيف به يسد رمقي:

أمثلي يعيشُ على أرْبَعٍ   وما سرتُ يومًا على حافر
وإن كنتُ فالتِّبْنُ في رخصه   عزيزٌ على جوعنا الكافر!

ثم كيف لهذا المعاش ذي الجنيهات الأربعة أن يسترني في حياتي، حيث لا بيت آوي إليه، وزادي هو الجوع... فأغيثوا أخاكم ليحيا حياة كريمة...

وليس معاشي كما ينبغي   كما أنَّه ليسَ بالسَّاتر
فكيفَ نقابتُنَا ترتضي   لمثلي التَّعَثُّر كالجَائِر
فلا بيت آوي إلى عُقْرِهِ   لدى الحرّ أو يومنا الماطر
ثيابي إهابي وزادي الطَّوى   ألَيْس لذلك من آخر

أغيثـــوا أَخَـــاكم ليحيـــا بكـــم كَكُـــلّ امـــرئ حامـــدٍ شـــاكرِ
دعـــوتُ لَـــكَ اللهَ فـــي محنتـــي بحســـن الجـــزاء "أبـــا عـــامر"(٤٩)

وقد كان د/ طه حسين شديد الحدب على شاعرنا حيث سمع شعره، وكان كلاهما يبادل الآخر الود والتقدير، بيد أنه – الشاعر – كان يلجأ إليه عندما تشتد به أزمات المهنة "التدريس"، حيث كان يعمل معلمًا في بداية حياته.

وكان لطه حسين "المستشار الفني بوزارة المعارف عام ١٩٤٢م، ووزير المعارف بين يناير ١٩٥٠م، ويناير ١٩٥٢م كلمة مسموعة في هذه الوزارة، حيث رشح شاعرنا لوظيفة أعلى لولا عقبة المؤهل "شهادة المعلمين العامة" التي لا يحمل الشاعر غيرها،... ثم حدث أن اختلف شاعرنا مع ناظر مدرسته،اختلافًا أُحيل على أثره للتحقيق، فكتب شكوى إلى طه حسين، يبثه فيها تعاسة مهنة التدريس، وما يلاقيه في المدرسة من هوان في كل شيء بطريقة كاريكاتورية ساخرة:

تعثّـــر حَظّـــي فمـــا أَتْعَسَـــه وأَدْبَـــرَ نجمـــي فمـــا أَنْحَسَـــهْ
وأوقعنـــي الـــدَّهرُ فـــي حفـــرةٍ يُسَـــمونها خطـــأ مدرســـه
يهولـــك منهـــا جمـــال البنـــاء فتَبَّـــتْ يمـــينُ الـــذي أسســـه
فلـــو كـــان يـــدري لمـــن شـــادها لمـــا أجهـــد الفكـــر فـــي الهندســـه
فقـــد جَمَعَـــتْ مـــن ضـــعاف النفـــوس شـــبابًا مـــن الخيـــر أن تَبْخَســـه
ونـــاظِرُهم بـــين هـــذا وذاك كثيـــر التـــردد والوسوســـه
يعـــوّج طربوشـــه معجبًـــا إذا هـــو قـــام لكـــي يلبســـه
وفـــي صـــدره وردة شـــكلها قريـــب التشـــابه بالمكنســـه

ثم يعمد إلى المدرسين واحدًا واحدًا، متهكمًا؛ كل مادة على حدة إلى أن يقول في آخرها:

كــــأني بهـــم واحــــدًا واحـــدًا وقــد عِفْــتُ مــن جهلــه مجلســه
حمــــارٌ تعثّـــر فـــي نَــــرْجسٍ فلـــم يبــق منهـــا ولا نرجســـه
ســـأرحل عـــنهم إلــــى غيــــرهم ولـــو كـــان نقلـــي "لسونرسّــه"(٥٠)

وقد رق له طه حسين وقتها، ونقله إلى ديوان عام الوزارة مفتشًا للأناشيد بمناطق الوجه البحري والإسكندرية.

وله معه موقف آخر، حيث ظفر قبل خروجه للمعاش برعايته وتقديره عام ١٩٥٠م عندما كان وزيرًا للمعارف العمومية بعد أن لمس ما هو فيه من غبن شديد، وكان طه حسين قد أزمع السفر إلى إيطاليا، فكتب إليه الشاعر يقول:

تــرى مــن علّــم البحــر الغرامـــا ومــــن بالشــــوق أرّقـــه فهامـــا
ســـلام الله يـــا "طـــه" ســـلامٌ كنَشْــر المِسْــكِ أو عَبَــقِ الخُزامــى

**

تبيــتُ تهــتمُ بــالتعليم فــي وطــنٍ مــا حُلــتَ عــن حبِّــه يومًــا بسـلوانِ
شــــبهتُه بهـــــواء راحَ يعوزنـــــا كالمـــاء فيــه تَسَــاوَى كــلُّ إنســانِ

إلى أن يقول:

هَبْنِـــي بيانـــك علّنـــي أتـــدفَقُ فجــلالُ وصــفك حَــارَ فيــه المنطــقُ
أنـــتَ المُرَجَّـــي للشـــدائد فامْحُهـــا بمضـــاءِ عـــزمٍ كالمُهَنَّـــد يَمْحَـــقُ
والمــرءُ إنْ يُــولِ الجميــلَ فإنَّـــه بالمَكْرُمَـــاتِ وبالمحبَّـــةِ أَخْلَـــقُ

ثم يخاطب السفينة التي أقلته إلى فرنسا وتركته في حالة حزن وانتظار:

إلـــى أي المــدائنِ يـــا ســـفين يغـــادرُني ولـــي قلـــبٌ حـــزينُ
أيرضــى أن يكــونَ "جحــيم دانتــي" مـــآلي.. وهـــو ســـخرية وهـــون
وفـــي الـــدنيا "نعـــيمٌ" لســـت أدري متـــى أيامـــه – خطـــأ – تحـــين!
لعـــلّ المـــوتَ موعـــدُنا فأُمســـي ولـــي جســـدٌ يباركُـــهُ السُّــكونُ(٥١)

وقد كان له ما أراد "إذ استصدر الدكتور طه حسين قرارًا من مجلس الوزراء بترقية الشاعر درجتين استثنائيتين "من السادسة إلى الرابعة" إلا أن الفرحة لم تتم، إذ عمدت الوزارة التي تولّت الحكم قبيل قيام الثورة إلى إلغاء قرار ترقية الشاعر، فعاد إلى قواعده بالدرجة السادسة[٥٢].

وقد يكون الأبناء سببًا للبؤس عنده، وخاصة مع الفقر حيث يقول معبرًا عن سهده وأرقه:

يـــا قـــومُ عـــزّ الرقـــادُ مُـــذْ صـــارَ لـــي أولادُ
طغـــتْ علـــيّ وجـــارتْ ذات الـــدّلال "ودادُ"
وجرَّنِـــي مـــن ثيـــابي لكـــل عـــبْءٍ "فـــؤاد"
وغـــاب عنـــي "عصـــام" فغـــاب عنّـــي الرشـــاد
بنـــيّ أنـــتم عتـــادي لله هـــذا العتـــاد
عيشـــوا كرامًـــا كعيشـــي إن الحيـــاة جهـــاد[٥٣]

وأما تصرفاته الشخصية فنراها في قصائد الحرمان حين يعجز عن تحقيق مآربه الخاصة، فيقول وقد بلغ الستين "سن التقاعد":

أمـــوتُ علـــى المكاتـــبِ كـــلَّ يـــوم فكيـــفَ اليـــومَ أفـــزعُ مـــن فراشـــي
كســـبتُ لُقَيمتـــي ســـتين عامًـــا كمـــا كســـبتْ لقيمتَهـــا المواشـــي

ونراه معتدًا بنفسه أيما اعتداد، شامخًا أيما شموخ عندما يفرق بين الشعر والإلهام:

قـالوا نأيـتَ عـن الجمـالِ الضَّـاحي وهجـرتَ صـورَتَهُ إلـى الأَشْـبَاحِ
قلـتُ اطمئِنُـوا فالحيـاةُ ذميمـةٌ لـولا بقيـةُ سـلوةٍ فـي الـراحِ
مـا عـابني إلا سـلامةُ نيّتـي وترفّعـي عـن أخبـثِ الأرواحِ

إلى أن يقول في كبرياء وشموخ نبيلة:

خيـرٌ لمثلـي أن يمـوتَ تَعَفُّفًـا عـن مـاء قـومٍ لـم يكـنْ بقُـراحِ[٥٤]

أما غدر الأصدقاء فهو موضوع واضح لدى شعراء هذا الاتجاه، حيث التنكر، وتبدّل الحال الذي لا يدوم، حين تنقلب الصداقة إلى علاقات مقطوعة بسبب جحود أحد الطرفين، وقد عانى شاعرنا من هذا الجحود، وذلك التنكر برغم صدقه ووفائه لمن يقاطعونه:

عرفتُ من الدُّنيا صديقًا منحتُه ... وفائي وودّي طائعًا متخيّرا

وما كان هذا الودُّ منّي لحاجةٍ ... إليهِ ولكنْ كان أمرًا مقدَّرا

تقرَّبَ منّي فاغتبَطْتُ بقُرْبِهِ ... وسطَّرْتُ في قلبي له ما تسَّطرا

وفاءٌ كما شاء "السموأل" لم يكن ... مشوبًا به ريب ولا كان ممترى

وأنزلته منّي كنفسي ولم أكن ... أباهيه أو أغلو عليه تكبرا

ثم يحدث التحول بعد تبدل الحال بأحدهما، أو أصبح الصديق في غنىً بسبب ثراء وقع، أو جاه تحقق:

وحتى إذا ما باتَ عنّي في غِنَى ... ونال من الدُّنيا ثراءً ومظهرا

تَزَحْزَحَ عني، ثم ضيّع صُحْبَتِيْ ... وألْوى بوجهٍ كان بالأمْسِ أزْهَرا

وبعدها يحاول مع صديقه بطريقة حوارية لا تخلو من طرفة هدفها الإبقاء على تلك الصداقة، والحرص على عدم التفريط فيها.. ولكن هيهات الوفاء في بني البشر:

فقلت: صديقي؟ ما عَهِدْتُك هكذا ... فماذا جرى بيني وبينك يا تُرى؟

أأخطأتُ؟ لم أخطئ، وإن كنتُ مخطئًا ... فما كان عهدي فيك أن تتَغَيَّرا

فعيّ ولم يمْلُك من القولِ حجَّةً ... يعود إليها ثم ولّى وأدبرا

هنالك صِحْتُ: الويلُ من نسل آدم ... رددتُ ما قال ابن حجر لقيصرا:

"كذلك دأبي لا أصاحب صاحبًا" ... من الناس إلا خانني وتنكرا(٥٥)

وفي موضع آخر يزداد بؤس الشاعر وأساه من نفاق الأصدقاء وعدم وفائهم، ونراه مصورًا لحالة الصديق المنافق نفسيًا، تلك الحال التي تجعله يبش في وجهه وهو يضمر له أشد أنواع العداوة والحقد:

أتـبشُّ فـي وجهـي وقلبُـك مظلـمٌ ... منّـي وصـدرُك بالضـغينة مُفْعَـمُ
وتظـلّ مبتسـمًا إذا لاقيتنـي ... وتفـيضُ فـي أمـرِ الوَفَـاءِ وتُقْسِـمُ
وتصوغ لـي مـن حُسْن لفظك زخرفًا ... متكلفًـا مقتـي كأنـك مُغـرمُ
تنتـابني وتـذمّ فـي فضـائلي ... حمـدًا وحقـدك فـي الفـؤاد مجسـمُ

ثم يعقد مقارنة بين هذا الصديق الخائن وبين الذئب الغادر الذي غال غنم القوم بعد أن منحوه الأمان، واحتفظوا به لأنه كان مشرفًا على الموت، بيد أنه – الشاعر – يبرر الغدر للذئب لأن ذلك طبع متأصل فيه، فهو حيوان بلا عقل يحكم أفعاله وغرائزه:

حتى إذا ما شِمْتَ ضعفي لم تكنْ ... إلاَّ كأنَّـك فـي وثوبـك أرقـمُ
أو كنتَ كالذئب الذي احتفظوا به ... لمـا رأوه مـن الـردى يتـألمُ
إذا غـال شـاتهموا ومـزَّق لَحْمَهـا ... إربًـا وسـال علـى نواجـذه الـدّمُ
لكنمـا للـذِّئبِ عـذرٌ واضـحٌ ... هـو طبْعُـه المتأصِّـلُ المـتحكمُ
لا عقـلَ يردَعُـهُ لـذلك خَـانَهُم ... أفأنـت وحـشٌ مثلـه لا يـرحمُ

ثم يخاطب الذئب طالبًا منه أن يفاخر الوحوش تيهًا، لأن هناك من هو أظلم منه بين بني البشر، الذين فقدوا معنى الوفاء والإخلاص لذويهم:

يـا ذئـبُ تِـه بـين الوحـوش مفـاخرًا ... إن عـمّ ظلمُـكَ فـابنُ آدمَ أظلـمُ
هـذا صـديقي قـدْ وفيـتُ لـه فمـا ... أبقـى علـيَّ فكيـفَ لا أتنـدمُ
وأقـولُ إنَّـك منـه خيـرُ سـيرةٍ ... وأجـلُّ فـي بعـض الأمـور وأعظـمُ

ثم يعود إلى صديقه الذي باع مودّته مقررًا تلك النهاية الحتمية للخيانة، والإهمال التي فُطر عليها الكثير من الناس عبر الأزمان المختلفة، وهذا من دواعي الأسى بين البشر.. ولذا فقد قرر وضع النهاية الحزينة، بيده هو لا بيد عمرو، وتنتهي القصيدة بتلك الحقيقة المرة التي تؤلمنا جميعًا، وهي أن الوفاء توهّمٌ بين البشر:

إيــهِ صـديقي كيـف بِعْـتَ مـودَّتي ... ومـــودَّةُ الإنســـانِ نِعْـــمَ المَغْـــنَمُ
لــو كنــتُ أعلــمُ أنَّ حبَّــك كــاذبٌ ... أو أنّ مـــا تفتـــرّ عنـــه تجهُّـــمُ
لســحقتُ قلبــي ثــم عِشْــتُ بغَيْــره ... وظللــتُ كــالحَجَرِ الــذَّي لا يَفْهَــمُ
لكـــنْ لربِّـــك حكمـــةٌ وتصـــرّفٌ ... فيمــا يســير بــه القضــاءُ ويُبــرمُ
ولــذاك لــم أنــدم عليــك وإنمــا ... أيقنــت مــن أن الوفــاء تــوهّمُ[٥٦]

ومن يقف عند البيت الثالث من هذه المقطوعة الأخيرة يجد كلمتي "سحقت – الحجر" اللتين تدلان على قسوة الفعل ونتيجته، وبالأحرى سرعة استجابة الشاعر لتلك القسوة التي حدثت معه، حتى إن ردّ الفعل جاء موازيًا لها بالسحق.. وسحق القلب معناه هنا موت المشاعر الإنسانية التي جعلت منه وفيًا لصديقه الخائن الذي لا يستحق تلك الصداقة.

ثم نراه في موضع ثالث "يشير" إلى تلك الخيانة من أصدقائه ويصورهم بالثعالب الماكرة المتلونة التي لا تحفظ عهدًا، ولا ترعى ذمة:

أوّاه قــد عــزّ الصــديقُ وخَــانَنِيْ ... مَــنْ كُنْــتُ أرجُــوهُ لــدى البَأْسَــاءِ
إذ خَـانَنِيْ دَهْرِي فقلتُ أخي أخي ... فمضــى وراغَ ولــم يُصِــخْ لنــدائي
فلبثــتُ مشــدوهًا بــأمري حــائرًا ... متخبطًــا فــي ظللمــة الأنــواء

وهنا تحدث المفارقة العجيبة والمقابلة على غير العادة:

حتــى تــرحّم لــي العــدو ورقّ لــي ... أمــا الصــديقُ فكــان مِــنْ أعــدائي

أما أنا:

فعجبتُ من أمري وقلتُ حقيقة أنتم ثعالب يا بني حواءِ
وشكرت للدهر المسيء صنيْعَهُ رَغْمَ الإساءَةِ مِنْهُ والإيْذَاءِ
إذ نمّ لي عن صاحبٍ متستِّرٍ في ودّه لي تحت ثَوْبِ رياءِ

ومن مظاهر بؤسه وحرمانه أيضًا إحساسه العميق بضيعة الأديب، وعدم تقدير الناس لذوي المواهب من الأدباء، وقد صور ذلك في براعة فائقة بقصيدة منحها نفس العنوان "ضيعة الأديب" لا تخلو من براعة استهلال تدل على تمكن الشاعر من أدواته الفنية، ولغته السلسلة، وجمال في التعبير مع وضوح للمعنى، وموسيقى منغمة ذات رنين حزين مع قافية السين الساكنة، والمقيّدة التي تؤكد ما جاء به الشاعر وتنبئ عن الحالة النفسية التي يعيشها:

كأنّ اللَّيلَ حين سَجَىْ وعَسْعَسْ وغاب الصُّبْحُ عنه وما تنفّسْ
وضاق به الحكيمُ ولم يوفق لمخلوقٍ له في الأرضِ يَأْنَسْ
ظلامُ السِّجن صادفَ منه نفسًا يعزُّ عليه: دون الخلقَ تُبْخسْ

ومن يتأمل ألفاظ: الليل – سجى – عسعس، غاب الصبح، وما تنفس، ضاق به، لم يوفق، ظلام السجن.. يعز عليه – تبخس.." يجدها جميعًا لشاعر معذب حزين فهي تدل دلالة واضحة على تلك المعاناة التي يحياها.. وليس ذلك فقط بل:

غدا كَسَحَابةٍ حَمَلَتْ غمامًا وما انتفعت بما حملتْهُ أنفس
فجُنَّ جُنُونُه وازداد قهرًا كأنّ بصدره جنًا يوسوس

لكنه لم يستمر طويلاً في صمته وبؤسه بل أطلقها مدوّية للجميع، معلنًا عن شقائه وحرمانه، وسبب ذلك كله مع أنه يمتلك من المواهب ما يضعه في مصاف المتميزين:

وصاح، أفيْ بني الدُّنيا رأيتمُ أشدّ شقاوةً منِّي وأتعسْ
أنا الروضُ الشذى وفيه سروٌ وريحان ونسرين ونرجسْ
تَفَقَّدْتُ الأنوفَ فلم أصادفْ سوى أنفٍ عديمِ الشَّمِّ أَفْطَسْ

أنـــا الكَـــرْمُ الشـــهيُّ وفيـــه خمـــرٌ ومـــا مِـــنْ قـــاطفٍ يومًـــا تحسّـــس
نفســـي دوحـــة حملـــت ثمـــارًا فهـــل مـــن آكـــل منهـــا تلمّـــس
أنـــا الظـــلّ الوريـــفُ ولـــم أوفـــق لســـاعٍ فـــي هجيـــر العمـــر يجلـــس

ومع كل هذه الإمكانات المتاحة لديه، والمواهب التي يجمعها إلا أنه "أتعس غني" حيث خزائنه مليئة بذهب لا يُقدّر ولا يعرف قيمته بين أهله ممنْ لا يقيمون للأدب وزنًا:

ألا مـــا كـــان أتعســـني غنيًـــا خزائنـــه بهـــا الـــذهبُ المُكَـــدّس
ولكـــن أيـــن أنفقـــه وقـــومي أبَـــوْا مـــالي وفـــيهم كـــلُّ مفلـــس
ألا ليتنـــي فـــي الأرض عـــينٌ جفاهـــا المـــاء.. بالأحجـــار تُطْمَـــسْ

ثم يعمد إلى استدعاء الموروث التاريخي في نهاية القصيدة عن طريق الاستشهاد بشخصية تراثية مشهورة بالخطابة والفصاحة في العصر الجاهلي، وهو نوع من التناص اللفظي:

ويـــا ليـــت الـــتمكن كـــان عجـــزًا إذا ســـاوَوْا "بقـــسّ"[٥٧] كـــلُ أخـــرس[٥٨]

وفي قصيدة له بعنوان "مهرجان الربيع" وقد ترجمت إلى اللغة الفرنسية، حيث قدّم لهذه القصيدة بنفسه – على غير عادته – في ديوانه الكبير قائلاً[٥٩]:

هذه القصيدة ترجمها صديقنا المرحوم الكاتب الكبير الشاعر اللوذعي "فيلكس فارس" يوم أن سمعها من الشاعر في المهرجان الذي أقامته جمعية الشبان المسلمين بالإسكندرية، وما كنا لننشرها في هذا الديوان لولا ولع صديقنا الأديب أحمد مصطفى حافظ بالبحث والتنقيب:

قد ضمنها الشاعر خلاصة حياته برغم عنوانها الذي يدعو إلى التفاؤل، والأمل.. وهل للربيع رمز غير ذلك...؟ فجاءت معبرة عن مكنون الشاعر، ونظرته البائسة إلى الحياة وفلسفة الوجود كما يراها بشكل خاص:

تَعِسَ النـاسُ لـيس فـيهم نصـيرٌ للمعـالي ولـيس فـيهم ضـميرُ
إنَّ نفسـي تكـادُ همّـا تطيـرُ حـين قـالوا لقـد وَفَـى "قطميـر"[٦٠]
وبحثنـا فلـم نجـد إنسـانًا
يـا حيـاة تسـيئ للأبريـاء وتُحـابي أَهْـلَ الخَنَـا والـدّهاء
حـدّثيني عـن آدمَ فـي حيـاءٍ واذكـري مـا عرفـتِ عـنْ حـواء
وكيـف كانـتْ وكيـف آدمُ كانـا

أما الأرض فهي:

هـذه الأرض موضـعٌ للهمـوم لـيس فيهـا مِـنْ راحـةٍ أو نعـيمْ
....
علـم الله أن قلبـي جـريحٌ والمـداوي بمـا لديـه شـحيح
ليـت شـعري، وإننـي لصـريح كيـف عـيّ اللسـانُ وهـو فصـيح
عقَّنـي اللفـظ فـي الربيـع وخانـا

ثم يتوجه إلى الليل، حيث اللحظة الفارقة للمهموم المكدّر:

أيهـا اللَّيـلُ هـل شـهدْتَ سـكوني أيُّهـا اللَّيـلُ هـل رأيـتَ جُفُـونِي
كيـف يـا ليـلُ فـاضَ مـاءُ الشـؤون وتعشَّـقْتَ فـي الظـلامِ شـجُوني
واعتنقْـتَ الآلامَ والأحزانَـا

ولهذا كله فقد:

عافـتْ الـنفسُ كـلَّ مـا فـي الحيـاة غيـرَ وحـيٍ تجـري بـه خطراتـي
بـينَ هَمْـسِ الشّـفاة والقـبلاتِ واحمـرارِ الخـدودِ والوجنـاتِ
وافتتـان الربيـع أنـا فآنـا[٦١]

وأما تصرفاته الشخصية فنحن نراها أو نرى بعضًا منها في قصائد الحرمان عندما يعجز عن تحقيق مآربه الخاصة فيقول وقد بلغ سن التقاعد:

يقولــون: المعــاشُ نــذيرُ مــوتٍ　　　فقلــت: جهلتمــوا معنــى المعــاشِ
فــإن المــوتَ يلقــى كــلّ حــيّ　　　كمــا يلقــى ابــنَ آدمَ وهــو ماشــي
وداعًــا يــا وظيفــةُ حيــثُ إنــي　　　خرجــتُ مــن الممــات إلــى المعــاش
أمــوتُ علــى المكاتــب كــلَّ يــوم　　　فكيــفَ اليــومَ أفــزعُ مــن فِــراشِ
كســبتُ لقيمتــي ســتين عامًــا　　　كمــا كسِــبَتْ لقيمتَهــا المواشــي

والظاهرة البارزة في حياة البائس هي الفقر إلى حدّ الفاقة والعوز، فكم تمرّ ليالي الشتاء الباردة المهلكة عليه دون أن يجد ملجأ أو "كنًّا: يتوارى فيه ملتمسًا الدفء والنوم".

وقد اعتمد شاعرنا على أفكار وعواطف مستمدة من حاجات المجتمع، وكثيرًا ما كان الغرض من نظم أشعاره غاية اجتماعية متصلة بعصره، غير منفصلة عنه، حيث الاطلاع على مصادر الشقاء ومظاهره من حوله، والمنتشر بين طبقات أمته مما يكون دافعًا للشفقة والحنان والرقة لمن هم على شاكلته، وهكذا كان الشاعر يحسّ برسالته الاجتماعية إحساسًا خاصًا، وقد قام بذلك مخلصًا، حيث يشهد بذلك العديد من قصائده.

وحدث أن تعرض الشاعر في شيخوخة للمسغبة وضيق اليد، فأطلق صورة حيّة للبؤس والحرمان واصفًا حالته المعنوية والمادية، وليس ذلك فقط، بل صور أثر العوز والفقر لمن هم على شاكلته حتى يستدر عطف الناس على المحتاجين والفقراء حين يقابلهم الشتاء، وكأنها آهة في وجه مجتمع قاس لا يرحم:

أتــدري كيــف قــابلني الشــتاءُ؟　　　وكيــفَ تكــونُ فيــه القرفصــاءُ
وكيــف البــردُ يفعــلُ بالثّنايــا　　　إذا اصــطكت وجاوبَهــا الفضــاءُ
وكيــف نبيــتُ فيــه علــى فــراش　　　يجــورُ عليــه فــي الليــل الغطــاءُ

لقــد وافــى... وقــابلني بوجــهٍ كوجــهِ النَّــذْلِ، فارقَــهُ الحيــاءُ!
فــإنْ حــلّ الشــتاء فــأدفئوني فــإن الشــيخَ آفتُــه الشــتاءُ

ثم ينتقل إلى جاره؛ كنوع من التكافل الاجتماعي لمن لا يملك المال؛ فهو لا يملك إلا الشعر الذي من خلاله يوجّه أنظار الأغنياء للعطف على الفقراء في مثل هذه الظروف... حيث يبين أثر البرد والشتاء عليه قائلاً:

أتـدري كيـف جـارُك يـا ابـنَ أُمّـي يهــدِّدُه مــن الفقــرِ العَنَــاءُ
وكيــف يَــؤُوْدُه شــبعٌ وريٌّ وكيــف يبيــتُ يُغْــوزه الكســاءُ
وكيــف يــداه ترتجفــان بؤسًــا وتصــدمُه المَذَلَّــةُ والشــقاءُ
يصُــبُّ الزمهريــر عليــه ثلجًــا فتجمــدُ فــي الشــرايين الــدماءُ
لقــد نــزلَ الشــتاءُ بــه فضــاقتْ بــه الــدُّنيا، ومــا رحــمَ الشــتاءُ

ويمضي محاولاً استدرار عطف الأغنياء على الفقراء، بأن يستعرض ما خلق الله تعالى للحيوان من وقاية طبيعية لهذا البرد، ويقارن بينها وبين الإنسان الفقير:

خــرافُ الأرض يكســوهن عِهْــنٌ وترفُــل تحتــه نِعــمٌ وشــاء
وللخنزيــر والخِنّــوص جلــدٌ غلــيظٌ فيــه للجســم الوِقــاء
....
وهــذا الآدمــيٌّ بغيــر دار فهــل يرضــيك هــذا يــا شــتاء
....
أخــي الإنســان هــل يرضــيك طفــلٌ مــن الإنســان يلطمــهُ القضــاءُ
يجــوبُ الأرضَ مــن حــيَّ لِحــيّ ولا أرضٌ تقيــه ولا ســماءُ
تــراهُ وفــي ملامِحُــه شــقاءٌ وتحــت ثيابِــهِ الــدّاءُ العيــاءُ

ثم تكون النهاية المتوقعة في نظره:

معـــاذ الله أن ترضـــى بهـــذا وطفـل الجيـل يصـرعه الشـتاء[٦٢]

وفي قصيدة أخرى نلمس ما تعرض له من عوز وضيق ذات يد في هذه المرحلة الحرجة من عمره، حيث يقول في قصيدة أخرى مخاطبًا روح أمه في يوم ذكراها:

سـمعتُ صـوتَكِ يـا أمُـيّ ينـاديني من جنّـة الخُلْـدِ بـين الحُـور والعِـيْنِ
سـمعتُ صـوتك رنانًـا يطـالبني بواجباتـك باسـم الحـق والـدّينِ

ثم يتوجه إليها مباشرة مبررًا سبب بؤسه، وشقائه:

يـا أمّ أنـتِ أمـامَ الله ماثلـةً أمـا أنـا فطريـدٌ فـي الميـادين
لـم أنـسَ سـتين عامًـا بعـد أربعـةٍ مـن ذكرياتِـك إيحـاء الشـياطين
يـا طالمـا قلـتِ إنَّ الشِّـعْرَ مذبحـةٌ تُـودي بصـاحبها مـن غيـر سـكين
والشعرُ يا أمُّ أَغْلَى ما احتفظت بـه إن عشـتُ أومتُّ فهـو الـدمع يبكينـي
تركْتِنِـي لصـروفِ الـدّهر فاهتصرتْ عـودي وحسـبُك يـا أمـي تربَّيْنـي
خرجتُ من ظلماتِ البطن مُلْتمسًا نـورًا فكـان ظلامًـا مـا يُغَشِّـيْنِي

ثم يصل إلى هدفه، حيث يبلغ مدى تأثره:

ولا سـبيلَ لـدنيا النـاس أطرقُـه فمَـنْ إلـى قبـرِكِ المهجـور يهـدِنْي
إنّ الحيـاةَ بغيـرِ الأُم أحسـبُها حيـاةَ عـانٍ كسـيرِ القلـبِ محـزونِ[٦٣]

وفي نفس السياق نراه يندم على عهد قبوعه في "ظلمات البطن" وخروجه منه، حيث يقول في قصيدة أخرى:

قد كنتُ فـي ظلماتِ البطن مُضطجعًا فـي مـأمن لا أرى خوفًـا ولا فزعًـا
فـلا أجـوع ولا أعـرى ولا اضـطربُ ولا كنـت للأهـواء منـدفعًا
ولا بكيـتُ لأسـباب تُنَغِّصُـني ولا تجشَّـمْتُ آلامًـا ولا وجعًـا
حتـى خرجـتُ إلـى الـدُّنيا فـأدْرَكني هـمٌّ بكيـتُ لـه فـي حِيْنِـه تبعًـا

إلى أنْ يقول متحسرًا على حاله التي وصل إليها في نهاية عمره، ومظهرًا شقاءه وحرمانه وهيئته... وخلاصة حياته:

وهـل رسـولٌ إلـى أمـي يُبَلِّغُهـا — أن البنـاءَ الـذي شـادَتْ قـد انْصَـدَعَا
سبعون عامًا بـه مرّت فما تركتْ — مـن المحاسـنِ إلا منظـرًا بَشِـعَا
شـيخٌ أضـرّ بـه صـيفٌ وأسـلمه — بـرد الشـتاء إلـى ركـن بـه قبعَـا(٦٤)

والشاعر في عصيانه، وتمرده على أوضاعه التعسة قد يُحَوِّلُ ذلك التمرد والعصيان، والبؤس إلى دعابات ونِكات "وتلك طبيعة الإنسان المصري السوداني حين يلم به ظلم، ويحوق به الهوان"(٦٥).

وقد أبدع شاعرنا في نظم هذا النوع من القصائد بيد أنه لم يأت نسيجًا وحده هنا، بل إن "كثيرًا من شعراء الحرمان قد عرفوا بالدعابة الرائعة، والنكتة اللاذعة، التي يتحصنون بها في مواجهة آلام الحياة، بل إن الشعوب المحرومة كثيرًا ما تلجأ إبّان محنتها إلى الدعابة والنكتة، تنسى بها آلامها، وتخفف من وطأة ما تشعر به من ظلم وشقاء، وقد تجرى تلك الدّعابات في بعض الأحايين على ألسنة الحيوان، كما فعل "إيسوب" و "لافونتين" وعبد الله بن المقفع في "كليلة ودمنة"(٦٦).

ومثل ذلك نجده عند الشاعر في أكثر من موضع حيث يقول مداعبًا الهرّ مداعبة لا تخلو من طرافة وإسقاط:

انـتفخْ يـا هـرُّ فـي هـذا اللبلـد — وامـلأ الـدُّنيا مـواءً إنْ تُـردْ
وَتَبْهـنْس، قـل: أنـا ليـثُ الشَّـرى — لـم يكـن لـي بيـنكم كُفـوًا أحـدْ
مخلبـي كالنَّـابِ مرهـوبُ القـوى — يتحـدَّاكُمُ، وشـعري كاللِّبَـد
إنَّمـا لا تـنسَ إيـلاَم العصـا — لاَ تَلُمْنـي.. أنـتَ هِـرٌّ.. لا أسـدْ(٦٧)

وله كذلك دعابات ونكات منتشرة في ديوانه، نذكر منها مقطوعة تحت عنوان "جدول الحصص" الذي كان يشكو منه وهو مدرس، حيث تلقى جدوله الدراسي من زميل له وهو

المهندس "السيد الشربوني"، القائم بأعمال الجدول في المدرسة غير أن بعثرة الحصص من الصباح حتى آخر النهار جعلت ذلك الجدول مشوّهًا... حيث يقول:

لـي جدولٌ قد صاغَهُ "الشرنوبي" كالرَّمـل إذ ينهـارُ تحـتَ الطُّـوبِ
حصـصٌ مبعثـرةُ النظـامِ كأنهـا دولابُ قـومٍ دار بـالمقلوبِ
فـأجئُ بـه مـن الصـباحُ مبكـرًا وإذا خرجْـتُ ففـي تَمَـامِ غـرُوبِ
فكـأنني البـواب أفـتح بابهـا صـبحًا، وأغلقـه لـدى التشـطيبِ
قولـوا لـه: إنْ لـم يغيّـر جـدولي فلسـوف أحمـل فـي يـدي "مركـوبي"[٦٨]

ومنها كذلك: فرج والبقشيش[٦٩]، متشدق... [٧٠]. ولأنه شاعر قدير، يملك أدواته الفنية، فقد أبدع في نظم هذه النوع من القصائد مثل "إلى طفيلي"[٧١] و "إلى دعيّ"[٧٢]، و"مجهل مدرس"[٧٣] وهي عامة قصائد تنمّ عن اعتداد بالنفس، وكبرياء شامخة كل الشموخ، أبيّة كل الإباء، فهو شاعر يحمل روحًا فنية مغامرة تهزأ بالألم وتسخر بالأحداث الملمة به، مهما كانت...

أما إباء الشاعر فيظهر واضحًا في قصائد "إلهيات" حين يخاطب "الله" عزّ وجل في خشوع وصدق، وفي عزة وتبتل:

إلهـي أنـتَ تعلـمُ مـا بنفسـي وتعلـمُ كـلَّ خافيـةٍ بحـسِّ
فصُـنْ عـنْ كـلِّ مخلـوقٍ إبـائي ورُضْ نفسـي علـى أدبِ التَّأَسِـي
عزيـزٌ أنـتَ فـاجعلني عزيـزًا إذا مـا عِشـتُ أو جـاورت رمسـي
فلـمْ أرَ غيـر بابِـك مـن سـبيلٍ ولا لسـواكَ قـد طأطـأتُ رأسـي

وإذا عُد شاعرنا من شعراء البؤس، والحرمان إلا أننا لا نعدم أن نجد له شعرًا يدعو فيه إلى عدم اليأس، والعمل والاجتهاد وفيه دعوة لأبنائه من المصريين جميعًا من أجل "مصر" الغالية... ويودع في هذه الأبيات شيئًا من إحساسه الوطني، الاجتماعي... حيث يقول:

وهي دعوة للعمل والاجتهاد من أجل مصر:

كم من حَريبٍ في الصَّبابةِ عانٍ دَنِفٌ تقلِّبُه يَدُ الحَدَثان
يا ليلُ أرَّقتَ المُحبّ ولم يكنْ في الحُبّ يرضى شيمةَ السِّلوان
ما بالُ نفسي تطمئن إلى الدُّجى إن الدّجنةَ موئلُ الحيران
أنا في محاسنِ مصرَ صبٌّ مولعٌ متهتكٌ: فليشهد الثقلان(٧٤)
قوموا إذن وابنوا على تاريخكم مجدًا يطاول شاهق البنيان
لا تيأسوا فاليأس مقبرة الورى وسبيلُ كلِّ مزعزعٍ وجبان
فتخلقوا بالمكرمات وضمّدوا جرح البلاد ببلسم العرفان
كم من فقيرٍ نفسُهُ تواقةٌ للعلم في وادٍ من النسيان
الوَجْدُ بين ضلوعه متأججٌ يمشي على حسكٍ من السَّعدان

ويحزن لشعوره بالعجز عن مساندتهم لفقره وإقلاله بيد أنه يمتلك سلاحًا آخر سيوقفه للبِّر:

لو كنت ذا مال جعلتُ تجارتي صلة اليتيم ونجدة الإخوان
لكنّ ليّ قلمًا ملكت زمامه أوقفته للبرّ قبل لساني
ماذا يعود عليه من إعجابكم بخياله وبصوته الرنان

وفي النهاية يعود لموضوعه الأصلي الذي من أجله دعا إلى عدم اليأس، والاهتمام بالوطن لأنه عنوان المستقبل..

يا ضيعةَ الآمالِ إنْ لم تنقِذُوا شرفَ البلاد من القضاء الدَّاني
لهفي على المجدِ المؤثَّل هل مضى أمْ ضاع بين كواسِرِ العُقبانِ
لا، لمْ يَضِعْ مجْدُ البلاد ولم يَزَلْ فلترعَ مصرَ عنايةُ الرحمنِ

وكان آخر ما قاله في حياته... هذه الأبيات عن الموت، حيث تدل على إيمانه الشديد بالله تعالى، وبالإذعان لقدره، في مشهد مأساوي يترجم حياته ترجمة صادقة:

قـرأتُ كتـابَ المـوتِ مـنْ عهـدِ آدم ... إلـــى يومنـــا هـــذا.. ولـــم أُتَمِّـــمِ
وعـوّدتُ نفسـي، إنْ قـرأتُ صـحيفةً ... أو احتجـتُ فـي بحثـي لسِـفْرٍ ومعجـمِ
قـرأتُ إلـى أنْ يفـرغَ الصَّـبرُ كلُّـه ... وطالعـتُ حتـى كـلّ حـرفٍ مطلسـمِ
فـأعرفُ مـا ترمـي إليـه سُـطُورُه ... وأَخـرجُ بـالمغزى علـى خيـرِ مَغْـنَمِ
ولكـنَّ سِـفْرَ المـوتِ خيّـبَ فطنتـي ... وضـــيّع آمـــالي.. فَلَـــمْ أَتَفَهَـــمَّ

حتى يصل إلى مناجاة الله تعالى قائلاً:

تحيّرتُ يـا ربـاهُ فـي الأمـر.. إننـي ... أمـامَ جـلالِ المـوتِ قـد جئـتُ أرتمـي
فسـبحانَك اللَّهُـم أنـتَ خلقتَنَـا ... مـن الطـين فـي لحـمٍ علـى بعـض أعظـم
نروحُ ونغدو في الحياةِ.. فإنْ دَنَتْ ... يـدُ المـوتِ لـم نَنْـبِسْ ولـم نَـتَكَلَّم
وعُدْنا – كما كُنَّا – تُرابًا .. مِهَادُنا ... صخورٌ.. وفي ضيق من القبرِ مظلم
ولـم يبـقَ للـدُّنيا سـوى ذكرياتِنَـا ... إذا مـا فقـدنا: صـورة اللحـم والـدّم[٧٥]

ثم تكون المأساة الكبرى للشاعر في نهاية حياته، وذلك حين حضرته الوفاة بدار رعاية الشيوخ بالإسكندرية، تلك الدار التي حمل إليها على أعناق بعض فاعلي الخير، بعد أن التقطوه من الطريق العام، منكسرًا متضعضعًا لا يجد العلاج والدواء... وقضى نحبه فيها متأثرًا بالجرح الغائر بسلسلته الفقرية، على أثر تعثره أثناء صعوده سلم الفندق الذي كان يقيم فيه[٧٦].

هكذا عاش الشاعر – محمد فضل – مُحلّقًا في سماء الشعر والإيمان، وقد صقل روحه البؤس والقلق والحرمان، ولم يكن يومًا منفصلاً عن مجتمعه، وبرغم ما لاقى من الناس إلا أنه لم تُلهه همومه الذاتية في كفاحه المزمن من أجل لقمة العيش، وشعوره بالغبن والحرمان عن

مشاركة الناس أفراحهم وأتراحهم، كما أنه لم يعش متفردًا في برج عاج، يطل من أعلاه على المجتمعات، بل كان ينزل إلى الشوارع والمحافل، وساحات الجهاد، ويندمج فيها، وفيما يدور حوله من أحداث ووقائع وثورات.. وعلى رأسها ثورة ١٩١٩م، لإعجابه بشخصية سعد زغلول، وإيمانه الشديد بمبادئه، ثم جاءت ثورة ١٩٥٢م، التي انفعل معها أيضًا، وأعجب بها وسطر فيها القصائد.. ثم تفاعل مع العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦.... ودعا إلى العمل وعدم اليأس بعد النكسة...

وكذلك لم تُلهه اهتماماته بدنيا الناس وحياتهم المادية عن التسامي بواقع حياته، وحياتهم إلى سموات الروح، والالتجاء إلى رحاب الخالق الرحيم... ويكفي أن نجد هذه المعاني مجتمعه عنده في أكثر من عشرين قصيدة في أول ديوان تحت عنوان "إلهيات من وحي السيرة النبوية الشريفة".

وهذا ما جعله ينماز بين شعراء البؤس والحرمان، حيث لم ينخرط في بؤسه، وفقره، ويستسلم لهذه الحياة الضائعة، كما فعل عبد الحميد الديب، ولم يشارك شعراء الحرمان في الصعلكة كما كان حافظ إبراهيم الذي جمع بين المُلك والصعلكة كما يقول صالح جودت: "ألا تراه ملكًا حين يشارك في ثورة الضباط الأحرار على الإنجليز في السودان، ويلعن جلاد دنشواي؟..ثم ألا تراه صعلوكًا حين يسجد على عتبات القصور ويستجدي الأثرياء طعامًا، ولباسًا، ويمتدح كرومر، ويهنئ إدوارد السابع بالملك؟..[٧٧].

وهكذا جاء شاعرنا – فضل – مختلفًا في بؤسه، وحرمانه عن الديب الذي قضى عليه بؤسه، وجعله منفصلاً عن قضايا مجتمعه لاستغراقه التام في همّه الشخصي، وعزوفه عن الانخراط في مجتمعه وقضاياه.

وصفوة القول في شاعرنا – محمد فضل إسماعيل – أن شعره قد عبّر تعبيرًا خالصًا عن وجدانه الفردي، ومشاعره الخاصة تجاه نفسه، ومجتمعه، إنه يخضع لمبدأ الالتزام.. لا لأنه ملتزم به، وإلا كان شعره افتعالا ومبالغة وإسرافًا، ولا لأنه مجرد وسيلة للتعبير عن آرائه شعرًا، ولكنه يقوم على إحساسه بما كتب أولاً، ثم نفاذه إلى حميم الأحداث الجارية على أرضه...

إنه شعر حيّ، وحسبك أنه آنات محروم بائس يتألم ويشقى، ويحب ويكره، ويشارك الناس أفراحهم وأوجاعهم.. فهو إنسان كأي إنسان.. خادم من خدّام الحق والخير والجمال... حسبك منه أنه مع ذلك كله كان يهتف بشيء من المرارة والألم، وبكثير من ثقافة الفكر وعمق التأثير.

الهوامش :

(١) ظاهرة الحرمان في شعر الأمير عبد الله الفيصل: خليل أبو ياب؛ بحيث مودع على شبكة الإنترنت – منتديات "ستوب".

(٢) سكيولوجية التذوق الفني، د. مصري حنورة، المقدمة، ط دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

(٣) الأسس النفسية للإبداع الفني، د. مصطفى سويف ص ٤١٤ – ٤١٨، ط دار المعارف – القاهرة، ١٩٨١م.

(٤) علي محمود طه "الشاعر والإنسان": أنور المعداوي، ص ٢٣ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ت

(٥) ديوان امرئ القيس – ص ٤٢، ٤٣، تحقيق: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، د ت.

(٦) ديوان مجنون ليلى: قيس بن الملوّح: ص ٥٩، قدّم له وشرحه: مجيد طرّاد، ط الأولى، عالم الكتب، ١٩٩٦م.

(٧) ديوان المتنبي: أبو الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، ص ٢٣٩: ٢٤٠ ضبطه وصححه: "مصطفى السقا وآخرون"، ج٤، دار المعرفة، بيروت، د ت.

(٨) سورة البلد "الآية ٤".

(٩) الشاعر البائس "عبد الرحمن الديب": د. عبد الرحمن عثمان ص ٨٠، مكتبة العروبة، القاهرة، سنة ١٩٨٥م.

(١٠) ديوان المتنبي: أبو الطيب المتنبي، ج ٣ ص ٢٢٠.

(١١) ديوان أبي العتاهية: إسماعيل بن القاسم، ص ٣٠٨، قدم له وشرحه: صلاح الدين الهواري، دار الهلال – ط الأولى، بيروت سنة ٢٠٠٤م.

(١٢) ديوان أبي القاسم الشابي: أبو القاسم الشابي، ص ٤٤٩، تحقيق ومداخلة: إميل أ. كبا، دار الجبل، ط الأولى، بيروت، سنة ١٩٩٧م.

(١٣) "فهد العسكر" (١٩١٦– ١٩٥١م)، فهد بن صالح بن محمد العسكر، ولد في الكويت وتوفي فيها وقد اختلف في تحدثد تاريخ ولادته بين عامي ١٩١٣ – ١٩١٧م، حيث قضى حياته في الكويت، وزار السعودية والعراق. تلقى تعليمه المبكر في الكتاب،

ثم التحق بالمدرسة المباركية "١٩٢٢"، حيث تتلمذ على يد عدد من علماء عصره، منهم: عبد الله النوري، محمود شوقي الأيوبي، بعدها ترك الدراسة، وراح يعتمد على نفسه في التثقيف، والاطلاع على الشعر العربي قديمه وحديثه معتمدًا على مكتبة "ابن رويح" في استعارة ما تحتويه من كتب.

- له مجموع شعري في كتاب "فهد العسكر" حياته وشعره، لعبد الله زكريا الأنصاري، وقد طبع خمس طبعات آخرها سنة ١٩٩٧م، مطبعة الربيعان – الكويت.
- في أخريات أيامه أصيب بقرحة خطيرة في فكه الأعلى، بعد أن أصيب بالعمى، ولعل هذه القرحة كانت موصولة بالسرطان فلم تمهله إلا شهرًا واحدًا، ثم توفي في المستشفى الأميري وكانت وفاته عام ١٩٥١م.

- انظر ترجمته الكاملة في:
- أحمد عبد الله العلي وآخرون: قاموس تراجم الشخصيات الكويتية في قرنين ونصف، مطبعة حكومة الكويت ١٩٩٨م.
- خالد سعود الزيد: أدباء الكويت في قرنين – المطبعة المصرية – الكويت ١٩٦٧م.

(١٤) حمد بن سعد بن محمد موسى الحجي "١٩٣٨– ١٩٨٨م": ولد في قرية "مرات" بالقرب من الرياض، وتوفي بمدينة الطائف. عاش في السعودية.. وزار عدّة دول للعلاج... بعد الابتدائية التحق بالمعهد العلمي بالرياض سنة ١٩٥١م، ونال شهادته ثم التحق بكلية الشريعة، وأيضًا كلية اللغة العربية في الرياض، وحال مرضه النفسي دون بلوغ الغاية منها. أطلق عليه المؤرخون شاعر نجد، والشاعر الحزين، وشبهوه بالشابي وطرفة بن العبد، وإيليا أبي ماضي، إذ عانى من الغربة في مرضه... له ديوان "عذاب السنين" دار الوطن للنشر والإعلام ط الأولى – الرياض،.. وجمع شعره في ديوان بعد وفاته.

مصادر الدراسة:

- اتجاهات الشعر المعاصر في نجد – حسن فهد الهويمل – نادي القصيم الأدبي، بريرة، سنة ١٩٨٦م.
- عبد الله الحامد.. الشعر العربي الحديث في المملكة العربية السعودية – دار الكتاب السعودي "ط٢"، الرياض ١٩٩٣م.
- عبد الله بن إدريس: شعراء نجد المعاصرون – دار الكتاب العربي – القاهرة سنة ١٩٦٠م.
- راجع: معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين – المجلد السابع، ص ١١٠، الطبعة الأولى – مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت سنة ٢٠٠٨م.

(١٥) خلفان بن مصبح بن خلفان الشويهي "١٩٢٣– ١٩٤٦م" ولد في بلدة الحيرة "الشارقة – دولة الإمارات العربية المتحدة" وفيها توفي، بعد حياة قصيرة، قضاها في طلب العلم والتجارة. تعلم في كتاتيب التعليم المتاحة في عصره، عمل في تجارة اللؤلؤ مع جده.. وانتقل معه إلى عدة أماكن خارج الإمارات.

- شعره: جُمع شعره في: "الشاعر خلفان بن مصبح" ديوان أعدّه شوقي رافع، وحققه وليد محمود خالص.. اتحاد كتاب وأدباء الإمارة – الشارقة سنة ١٩٩٠م.
- كان شعره واعدًا – بثمرات لم يتح لها العمر القصير أن تزهر وتبهر يلتقي في شعره حبّ الحياة وتوقع الرحيل.. يصفه النقاد بالشاعر الجامح، ويقرن بالشابي في فنه الشعري، وفي رحيله المبكر، نظم الموزون المقفي بحسّ رومانسي وتأمل شارد..
- مصادر دراسته:

- إبراهيم محمد بو ملحة: خلفان بن مصبح.. دراسة أدبية، ندوة الثقافة والعلوم – دبي سنة ١٩٩٧م.
- محمد حسن عبد الله – أثر الشابي في مسيرة الحركة الشعرية العربية: "المشرق العربي" مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، دورة الشابي سنة ١٩٩٤م.

– راجع: معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين – المجلد السابع، ص ٣٦٨، الطبعة الأولى – مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت سنة ٢٠٠٨م.

(١٦) ديوان حافظ إبراهيم، محمد حافظ إبراهيم، ج ٢ ص ١١٤ – ١١٥، ضبط وشرح وتصحيح: أحمد أمين وآخرون، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – سنة ٢٠٠٢م.

(١٧) الشاعر عبد الحميد الديب: "حياته وفنه": د. عبد الرحمن عثمان، ص ٢٥٥، دار المعارف، القاهرة،١٩٦٨.

(١٨) حياة حافظ إبراهيم: أحمد محفوظ، ص ١٧٩، مؤسسة نصار للتوزيع والنشر – القاهرة، سنة ١٩٥٧م.

(١٩) السابق.

(٢٠) السابق: ص ١٨٠.

(٢١) البؤساء: فيكتور هوجو، ترجمة حافظ إبراهيم، ص ٨، سلسلة كتاب الهلال، العدد "٣٠" ذو الحجة "١٣٧٢هـ – سبتمبر ١٩٥٣م القاهرة.

(٢٢) حياة حافظ إبراهيم: ص ١٨١، ٣٠١.

(٢٣) عبد الحميد الديب "شاعر البؤس": تحقيق ودراسة محمد رضوان، مراجعة وتقديم: فاروق شوشة، ط المجلس الأعلى للثقافة، ط الأولى سنة ٢٠٠٠م.

(٢٤) السابق: ص ١٥٥.

(٢٥) الشاعر عبد الحميد الديب: عبد الرحمن عثمان، ص ٨١.

(٢٦) مأساة شاعر الحرافيش: محمد رضوان ص ٨– ٩، تقديم محمد إبراهيم أبو سنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، سنة ٢٠٠٧م.

(٢٧) مأساة شاعر البؤس: محمد رضوان، تقديم فاروق شوشة ص ١.

(٢٨) السابق، وكذلك ينظر: الصعلوك الساخر وشعره المجهول، محمد رضوان، تقديم فاروق شوشة، ص٨.

(٢٩) السابق: ص ٣.

(٣٠) الصعلوك الساخر وشعره المجهول: ص ٣٧١.

(٣١) السابق: ص ٣٥٤ – ٣٥٥.

(٣٢) الشاعر عبد الحميد الديب "حياته وفنه" عبد الرحمن عثمان، تقديم أحمد حسن الزيات، ص ٧.

(٣٣) ديوان أبي الشمقمق: مروان بن محمد ص ٥٢، جمع وتحقيق وشرح واضح عبد الصمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٥م.

(٣٤) السابق، ص ٧٨.

(٣٥) السابق، ص ٨٠.

(٣٦) الشاعر عبد الحميد الديب: عبد الرحمن عثمان، تقديم أحمد الزيات، ص ٨٠.

(٣٧) السابق: ص٩– ١٠.

(٣٨) صعاليك الزمن الجميل: يوسف الشريف، ص ١٨، ط الأولى، دار الشروق، ٢٠٠٥م.

(٣٩) محمد فضل إسماعيل: ١٣١٦ – ١٣٨٩هـ، ١٨٩٨ – ١٩٦٩م. ولد في مدينة فاقوس في محافظة الشرقية – مصر، وتوفي في مدينة الإسكندرية. عاش في مصر والسودان... حفظ القرآن الكريم في الكتّاب وهو في سن السابعة بمسقط رأسه، ثم انتقل به والده إلى السويس، فالتحق بإحدى مدارسها... ثم التحق بالأزهر... ثم حاول الانتساب إلى المدرسة الحربية المصرية فلم يوفق فالتحق بالمدرسة الحربية بالسودان، غير أنه فصل منها بعد مدّة الدراسة لما كان يبثه من أفكار من سيطرة الإنجليز، فعاد إلى مصر والتحق بمدرسة المعلمين العامة في مدينة الزقازيق وتخرج منها. عمل معلمًا في مدارس السويس طيلة أربع سنوات، ثم اتجه إلى الصحافة والأدب، فتم تعيينه وكيلاً مكاتبًا لمجلة المقطم بمدينة السويس، بعد مدة انتقل بنفسه وأصدر جريدة الثغر الشرقي في السويس ثم اعتقل وأغلقت صحيفته، وبعد الإفراج عنه عاد يزاول مهنة التدريس بمدارس التعليم، ثم نقل إلى ديوان عام وزارة المعارف مفتشًا للأناشيد بمناطق الوجه البحري والإسكندرية ١٩٤٥م، وظل بها حتى التقاعد.. نشر له "ديوان محمد فضل إسماعيل" شاعر السويس، إعداد أحمد مصطفى حافظ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ١٩٧٢م. حصل على جائزة أحمد زكي باشا "١٩١٨" في مسابقة أجريت لمن يأتي على وصف قناة السويس فيما لا يزيد عن خمسة وعشرين بيتًا.

– راجع: معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين – المجلد الثامن عشر، ص ٦٨٢– ٦٨٣، الطبعة الأولى – مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت سنة ٢٠٠٨م.

(٤٠) راجع: مقدمة ديوان "محمد فضل إسماعيل" كتبها: د. مختار الوكيل، عامر محمد بحيري، إعداد: أحمد مصطفى حافظ، ص س: المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – القاهرة سنة ١٩٧٢م.

(٤١) السابق: ص: ع.

(٤٢) مجلة الأديب: مقال بعنوان "الشاعر محمد فضل إسماعيل"، الكتاب: نقولا يوسف، ص ٣٥، عدد سبتمبر سنة ١٩٧٤م، لبنان – بيروت.

(٤٣) السابق.

(٤٤) وقفة مع الشعر والشعراء: جليلة رضا، ص ١٢٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٤٥) السابق: ص ١٣٠.

(٤٦) ديوان محمد فضل إسماعيل: ص ٦٤.

(٤٧) السابق ص ٢٥٥.

(٤٨) هو السيد "الجوهري عامر" وكيل نقابة المعلمين بالأسكندرية.

(٤٩) الديوان: ص ٢٥٧ – ٢٥٨.

(٥٠) الديوان: ص ٢٨٥ – ٢٨٦، و"سونرسة" هي "سنورس: مدينة بالفيوم" وذلك كتابة عن البعد والانتقال من هذه المدرسة آنذاك.

(٥١) الديوان: ٢٦٤ – ٢٦٥.

(٥٢) الديوان: المقدمة: ص ٧.

(٥٣) السابق: ص ٢٧٤.

(٥٤) السابق: ص ٢٧١.

(٥٥) الديوان: ص ٢٧٧.

(٥٦) الديوان: ص ٢٧٨.

(٥٧) قس بن ساعدة الإيادي، أخطب خطباء العرب في الجاهلية.

(٥٨) الديوان: ص ٢٨٩.

(٥٩) السابق، ص ٢٩٣.

(٦٠) قطمير: كلب أهل الكهف.

(٦١) الديوان: ص ٢٩٤.

(٦٢) السابق: ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

(٦٣) السابق: ص ٢٤٠.

(٦٤) السابق: ص٢٣٥ – ٢٣٦.

(٦٥) وقفة مع الشعر والشعراء: جليلة رضا: ص ١٣٢.

(٦٦) مقدمة الديوان: ص: ص.

(٦٧) الديوان: ص ٢٧٩.

(٦٨) السابق: ص ٥٩.

(٦٩) السابق: ص ٣٨١.

(٧٠) السابق: ص ٣٨٣.

(٧١) السابق: ص ٣٨٤.

(٧٢) السابق: ص ٣٨٧.

(٧٣) السابق: ص ٣٨٥.

(٧٤) السابق.

(٧٥) الديوان: ص ٣٢١.

(٧٦) شعراء ودواوين: أحمد مصطفى حافظ، ص ٢٦٠. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٠م.

(٧٧) ملوك وصعاليك: صالح جودت، ص ٣ مكتبة نهضة مصر، سنة ١٩٥٨م.